

**ابن الرومي**  
**حياته من شعره**

عنوان الكتاب : ابن الرومي حياته من شعره (الجزء الثاني)

تأليف : عباس محمود العقاد

اختيار وتقديم : مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/60، أيار

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

لوحة الغلاف : ابن الرومي كما تخيله الفنان أرتورو أوريس

الحقوق كافة

محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

---

---

البريد الإلكتروني: [unecriv@net.sy](mailto:unecriv@net.sy)

[aru@net.sy](mailto:aru@net.sy)

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

<http://www.awu-dam.org>

---

---

# ابن الرومي

حياته من شعره

تأليف

عباس محمود العقاد

الجزء الثاني

اختيار وتقديم

مالك صقور

---

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (60)



## الفصل الرابع

### عبقرية ابن الرومي

فرغنا في الفصل السابق من حياة ابن الرومي لنتكلم في هذا الفصل عن عبقريته وهي زبدة حياته والغرض الذي من أجله عاش ومن أجله يكتب الكاتبون عنه. فما تحرك في حياته حركة إلا كان لعبقريته منها نصيب أو فنى نصيب. حتى لكأنه كان لا يتحرك ولا يتنفس ولا يطعم ولا يشعر إلا ليتخذ من ذلك كله مادة حياة ويترجم ما عمل وما علم في قالب الفن ترجمة البر الأمين، وصفوة القول في هذه العبقرية أنها كانت عبقرية يونانية لولا الإفراط والانهماك، أو أنها كانت عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير.

ولسنا نصفها هذا الوصف لأنه تفسير سهل لهذه العبقرية النادرة ولكن لأنه وصف موجز يدل على أجزائها المختلفة بقليل من الكلمات.

فربما كان القول بأن ابن الرومي رجل حساس متوفز الأعصاب ملهى المزاج نشأ في حضارة زاهية فأجابته وأجابها وأخذت منه وأخذ منها فنبيغ على ذلك المثال الفريد لأنه لا بد في الشعر من مثال فريد -

ربما كان هذا أقل في العجب من تفسير عبقريته بأنها عبقرية يونانية على اعتبار أنها موروثه عن آباءه اليونان.. إذ من هم آباؤه اليونان! لا ندري أهم من إغريق الجزر أم من إغريق البلاد المعروفة باسم اليونان أم من إغريق آسيا الصغرى التي كانت تدور الحرب فيها وحولها بين المسلمين ودولة الروم. ومن الصعب الذي يحتاج إلى التفسير أن نقول أن هؤلاء الإغريق جميعاً سليقة واحدة وأمة واحدة وعنصر واحد ينحدر منه الرجل وينتقل إلى بيئته أخرى وينجب الأبناء في بيئته الجديدة فيجتمع فيهم كل ما تفرق من خصائص العبقرية الفنية التي تسمى الآن بالعبقرية اليونانية.

ثم نحن لا نعلم أن الإغريق في قديم عهدهم كانوا عنصراً واحداً ينتمي إلى سلالة واحدة، لأن امتزاج الأنساب بينهم وبين الآسيويين ثابت لا شك فيه واقتباسهم من عقائد الآسيويين وفنونهم ولغاتهم ثابت كذلك أقطع ثبوت. ولا يمكن أن نجزم برأي في وراثة الفطرة الفنية ولا سيما الفطرة في الشعب كله حتى لو عرفنا الأصل الذي تحدر منه ابن الرومي بين أصول اليونان الكثيرة. فقد كان في بلاد اليونان نفسها ألوف من أبناء الشعب اليوناني المحاطين بالبيئة اليونانية في جميع ظواهرها وبواطنها فلم ينبغ منهم في عصر ابن الرومي شاعر مثله ولا نبغ منهم في العصور السابقة التي ازدهرت فيها آدابهم وفنونهم شاعر من طرازه في جميع خصائصه وملكاته. فلو أننا نقلنا ابن الرومي من الأدب العربي إلى الأدب اليوناني لكان فذاً في أدبهم كما كان فذاً في أدبنا، ولم تنقض الحاجة إلى تفسيره بهذه النقلة من أدب لغته إلى أدب أصله، ولو أننا بحثنا عن مزية أصيلة في الفطرة اليونانية

تنتقل مع الدم وتسري في خلال التكوين لأعيانا أولاً أن نحصر هذه الفطرة ثم أعيانا بعد ذلك أن نحصر هذه المزية.

فنحن لا نفسر عبقرية الشاعر حين نسميها بالعبقرية اليونانية، ولكننا نصفها في كلمات موجزة وصفاً يقربها إلى الأذهان ويطبعها بهذا الطابع المعروف عند المطلعين على الآداب. وما من شك في أن الشاعر الذي تحدر من أصل يوناني أياً كان مقره غير الشاعر الذي تحدر من أصل عربي أياً كان مقره. ولكن التصريق بين هذين الشعارين شيء والقول أن الشاعر لا يحس هذا الإحساس ولا ينظم هذا النظم إلا إذا كان من أبناء اليونان شيء آخر. فحسبنا أننا نعرف ما نريد حين نذكر العبقرية اليونانية ولا نحاول بعد ذلك الخروج إلى تعليل الأصول والتعسف في تقسيم خصائص الشعوب.

وإنما وصفنا ابن الرومي بهذه الصفة لأنه صاحب عبقرية تعبد الحياة، وتحيا مع الطبيعة، وتلتقط الصور والأشكال، وتشخص المعاني، وتقدم الجمال على الخير أو لا تحب الخير إلا لأنه لون من ألوان الجمال، ثم هي تنظر إلى الدنيا نظرتها إلى المعرض المنصوب للتملي والمتعة لا نظرتها إلى الحصن المغلق أو الصومعة الموحشة أو غير ذلك من نظرات الأجيال والأديان، ولا نعرف صفة أجمع لهذه الخصال كلها من صفة العبقرية اليونانية التي اتسمت بها في الجملة فنون الإغريق، فقد كان الإغريق يجملتهم كما كان ابن الرومي بمفرده، لولا أن الإغريق كانوا يصيبون من كل متعة بمقدار وابن الرومي كان لا يعرف في أمر من الأمور مقداراً أقل من الإفراط والانهماك.

## عبادة الحياة

ولنتظر أولاً إلى حب الحياة الذي كان أول ما اشتهر به اليونان وأول ما نستشفه من فن هذه العبقريّة الحية.

في كل جزء من الأجزاء وكل حالة من الحالات. فابن الرومي كان من أخلص محبي الحياة بين محبيها الكثيرين، أو كان على الأصح الأوضح من مدمني الحياة بين شرابها غير المدمنين.

وحب الحياة خليقة نادرة وأن ظن أنها أعم شيء بين الناس وعامة الأحياء. فليس الحب - سواء حب حياة أو حب شيء من أشياءها - سهلاً رخيصاً يطمع فيه كل من يريد. فمن الناس من يحب الحياة كأنه مسوق إلى حبها، ومنهم من يحبها كأنه مأجور على عمله، ومنهم من يحبها كأنها يحب شيئاً غريباً عنه، ومنهم من يحبها كما (يحب) الحيوان الأعجم ما هو فيه، ومنهم من يحبها حب العاشق الذي يختار معشوقه أو يستوي عنده الحب على القسر والحب على المشيئة لأنه يريد ما يقسر عليه ويأبى أن يفرض للفراق وجوداً أو يتوقع لهواه تغييراً، فهو سعيد بأن يحب وأن يسمح له بأن يحب، وهو يحب الحياة لأنه حي لا موت فيه ولا عمل لكل حاسة في نفسه إلا أن تحس وتحيا وتستجد إحساساً وحياة ولا تشبع من الإحساس والحياة، وهكذا كان ابن الرومي يعبد الحياة عبادة لا يبتغي عليها أجراً غير ما يبتغيه خلص العابدين. فكان حياً كله لا مكان فيه للموت إلا الخوف منه والتفكير فيه.

وانك لتتابع أبياته الكثيرة في هذا الغزل أو في هذه الفتنة أو في هذا السكر فيخيل إليك أنه شارب قبض على الكأس يود أن



يجرعه مرة واحدة من فرط التعطش والخوف عليها لولا أنه يستعذبها ويستطيبها فيترشف منها رشفة بعد رشفة ويعود إليها ينظر ما فرغ منها وما بقي فيها، ويضن ويشتاق ويشعر بمرارة الفقد لفرط شعوره بحلاوة المتعة، فما نقصت من تلك الكأس - الحياة - قطرة إلا أحس بطيبها وأحس بألم فقدها وعرف مقدارها وقاس من الكأس حيزها وعاد يترشف لينسى فيزداد ذكراً على ذكر وخسارة بعد خسارة. وأي ذكر؟ وأي خسارة؟ وأي ألم؟ وأي فجيرة؟

**لعمرك ما الحياة لكل حي إذا فقد الشباب سوى عذاب**

**فقل لبنات دهري فلتصبني إذا ولى بأسهمها الصياب**

ومن هذه اللهفة بعد اللهفة تعرف كيف بلغ العشرين وكيف بلغ الثلاثين وكيف بلغ الخمسين وكيف بلغ الستين في قصائد شتى ومناسبات عدة لا موضع هنا لإحصائها ولكنها تدلك إذا راجعتها على مغالاته بهذه الودية وضنه بتسليمها والتفريط فيها وحرصه على ذخيرتها حرص الشحيح الذي يود أن يزيد في ماله المحسوب وهو يراه ينقص ساعة بعد ساعة ولمحة بعد لمحة.

وهو إذا ذكر الشباب لم تكن صورة الشباب في ذهنه أنه فترة من الزمن، أو ظواهر من المتعة والعافية، وإنما يذكره وهو ينفذ إلى صميمه وباطنه ولبابه الذي لا يحسب بالأيام ولا معول فيه إلا على جدة الشعور وجلاء الدنيا في بشاشتها الأولى كأنها الثمرة المقطوفة ولها

من الشمس صبغة جديدة ومن الطل مسحة غضة ومن العصير المكنوز  
وليمة تنادي الشهوة وتفتح اللهوة.

فلا يعنيه أن يدوم له الشباب وإنما يعنيه أن تدوم له الدنيا  
القديمة وهي في جدة البواكير وفي طرافة المفاجأة التي لا تذال. وإلا  
فما يعنيه أن يدوم الشباب والدنيا أمامه مذالة المنظر مجردة اللون  
مسلوبة من تلك المفاجأة في كل نظرة وفي كل لقاء:

لو يدوم الشباب مدة عمري لم تدم لي بشاشة الأوطار

أجل. هذا هو الشباب في صميمه وباطنه ولبابه. والشباب عنده  
أيضاً أن يستقبل الحياة لأنها لا تكون جديدة إلا بهذا الاستقبال.

أطالع ما أمامي بابتهاج ولا أقفوا المولي باكتئاب

والشباب عنده دولة يولى صاحبها على هذه الدنيا فتطيعه وتعطيه  
من خيراتها كل ما تملك وكل ما يصبو إليه:

سقى الشباب وإن عفا أثار معهده القستير

ما كان إلا الملك أو دى تاجه وهوى السرير

والشباب عنده هو الحياة، لا فرق بين فقده وفقد الحياة إلا أن  
فاقد الشباب يعلم بموته وفاقد الحياة لا يعلم ولا يأسى على ما فات.

وفقد الشباب الموت يوجد طعمه صراحاً، وطعم الموت بالموت يفقد

والشباب عنده مفقود لا عزاء بعده إلا عزاء الموت القريب:  
فما لي عزاء عن شبابي علمته سوى أنني من بعد لا أخلد  
وأن مشيبي وأعد بلحاقه وإن قال قوم إنه يتوعد

والشباب عنده مبكى لا يوفي البكاء إلا بالدم  
لا تلح من يبكي شبيبته إلا إذا لم يبكها بدم

ومرثي لا ينقطع رثاؤه حتى الممات:  
سأثني بآلاء الشبيبة باسطاً لساني بها حتى أحين فأقبضا

والخير الأكبر هو أن يحيا الإنسان، والشر الأكبر هو أن  
يموت، ولا سيئة عنده لهذا الخير العميم إلا تنغيص ذلك الشر العميم.  
سواء للحياة وللموت حتم ولسبذل الزمان واسترداده

وكل ما في الحياة من قلة الغبطة أن الأحياء يموتون:  
كيف العزاء وما في العيش مغتبط ولا اغتباط لأقوام يموتونا  
متى نعش فبلى الأحياء يدركنا وأن نمت فبلى الأموات يعفونا

وعلى هذا النحو يقول:

رأيت حياة المرء رهنا بموته وصحته رهناً كذلك بالسقم  
إذا طاب لي عيش تنفصت طيبه بصدق يقيني أن سيذهب كالحلم  
ومن كان في عيش يراعي زواله فذلك في بؤس وإن كان في نعم

فالخلود الخلود! لا شيء دون الخلود يرضيه ويستقر عليه مناه،  
وإلا فبنو الحياة بأتسون محرومون لأنهم لا يعيشون لا لأنهم يعيشون  
كما يقول المتشائمون الذين لا يحبون هذا الحب ولا يعبدون هذه  
العبادة ولا يحسون هذا الإحساس. وما تكلمنا بالمجاز حين قلنا أنه  
يعبد الحياة لأنه - على ما في شعره من هذه الأبيات المفرقة في شتى  
القصائد - قد كان يعلم ويقول أن للحياة ديناً يحرم ويحلل ويأمر  
ويطاع ولو عارض أوامر الدين:

شريت وقد كان الشباب محلاً

لي الراح ما كان الكتاب محرماً

وقد طابق الشيب الكتاب فحرمت

على فيك تحريمين إن كنت مسلماً

وذكر المحرمات في قصيدة أخرى فقال:

لم تحلل لمن أتاها ولكن لم يحل دونها من الشيب حام  
وأتى الآن دونها فهي اليو م حرام على كل الحرام  
سوأتي أن أظعت شيبى فيما لم أظع فيه حاكم الحكام  
وعظ الله والكتاب فصمم ست وأقدمت أيما أقدام  
ونهى الشيب بعد ذلك فأسل مت وأجمت أيما إحجام

فقد كان يدين في خوالجه بهذا الدين ويستوحي منه شريعة  
التحليل والتحريم، وتهم خواطره بالتبتل فيشبهه عنه هذا التبتل الذي لا  
نسكت دعوته ولا ينقطع رسوله:

أبى لأخي الدنيا التبتل أنها لها زيفة في كل حين تزيفها  
إذا ما جلاها في الرياض ربيعها يروق عيون الناظرين رفيفها  
وأخرى إذا ما أينعت ثمراتها ورقت حواشيها وطاب خريفها  
ترأى لنا في زخرفين كلاهما إذا استوحف الأهواء طال وحيفها

وقد كان همه الأكبر أن يحيا لأنه مهياً النفس للإحساس بالحياة، ولو كان همه على ما به من الخصاصة واللهفة أن يطلب القوت وينصرف إلى ذرائع العيش لما كان بالملوم.

وتعلق ابن الرومي بالحياة أقل شيء غرابة وأقرب إلى طبيعة الأمور. نعم إنه كان سقيم الجسم عسير الرزق مخيب الآمال فكان أحرى لذلك أن يبغض الحياة أو يحبها حب المجبر الملول، إلا أن المرء لا يحب الحياة على مقدار سعادته بها واستجابة آماله فيها، كما أن المرء لا يحب المرأة على مقدار ما ينال من حظوتها ويغنم من إقبالها، بل يحب هذه أو تلك كلما امتلأت بها نفسه واشتغل بها حسه واشتبتت بها ذكرياته وامتزجت بها رغباته، وابن الرومي كان صاحب نفس لا توصف إلا بأنها أداة مهياة للنظر والسمع والتلقي عن الوجود من حيثما ألقى إليه بأثر من آثاره وخبر من أخباره دق أو جل وأسعد أو أشقى:

**العين لا تنفك من نظر والقلب لا ينفك من وطر**

ومن أبهر ما يبهرك في هذه اليقظة الحسية حاسة اللون الذاكية المتوهجة التي تطالعك من كل وصف يصف به الوجوه أو الأزهار أو الكؤوس أو الحلي أو الخمر أو غير هذه المناظر التي تلامس البصر بألوانها فإنك قل أن ترى في وصف شاعر من شعراء العالم أجمع نظيراً لهذه الحاسة الشفافة المتوفرة التي تختلج لكل لمحة من لمحات اللون وكل شعاع من أشعة النور وتفتن إلى اللطف ما يبديه للعين من محاسن الامتزاج والمقابلة وأصفي ما يجلوه من دقائق المباينة

والمشاكلة. فيصيح صيحة الوهل حين يرى الوجنة الحمراء إلى جانب  
الصدغ الأذعج:

يا وجنتيه اللتين من وهج في صدغية اللذين من دعج  
ما حمرة فيكما أمن خجل؟ أم صبغة الله؟ أم دم المهج؟

ويصيح هذه الصيحة كلما رأى هذا المنظر:

ليت شعري أسحر عينيك داء الـ قلب أم نار خدك الوهاج

ويقول في مثل هذا المعنى:

تلقى جنى التفاح في وجناته وترى جنى العناب في تطريفه  
متعت منه مسامعي ومراشفي بنشير لؤلؤة وماء رصيفه

ويصف قينة فلا يكاد يعرض من مناظرها لغير الألوان التي في  
وجهها وثيابها:

وقينة إن منحت رؤيتها رضيت مسموعها ومنظرها  
شمس من الحسن في معصرة ضاهت بلون لها معصرها  
في وجنات حمرة في خجل كأن ورد الربيع حمرة

ويقول في ساقية:

بنت كرم يديرها ذات كرم موقد النحر مثمر الأعناب  
حصرم من زبرجد، بين نبع من يواقيت جمرها غير خاب  
فوق لبات عادة تترك الخما لى من كل صبوة وهو صاب  
تحمل الكأس والحلي فتبدو فتنة الناظرين والشراب

وفي قينة:

وشراينا وردية لكؤوسها شرر يطير  
حمراء في يد أحمر الو جنات ملثمه مهير

وفي مثلها:

إذا هي قامت في الشفوف أضاءها سناها فشفت عن سبيكة سابك

وفي قيان مجتمعات:

لابسات من الشفوف لبوساً كالهواء الرقيق أو كالسراب  
ومن الجوهر المضيء سناه شعلاً يلتهم أي التهاب



وليس أَلطف من قوله في وصف الأعتاب السود:

**سود لهن من الظلماء ألوان**

وفي العنب الأبيض:

**لم يبق منه وهج الحرور إلا ضياء في ظروف نور**

أما الخمر فربما كان نصيب عينه من نشوتها أجمل لديه وأحب إليه من نصيب السكر عند الشاربين - إذ تراه لا يصف سكرها كما يصف ألوانها وألوان أقداحها بل هو يكاد يحسبها لونا شائعا في الفضاء كما قال:

**صفراء تنتحل الزجاجاة لونها فتخال ذوب التبرحشو أديمها**

**لطفت فقد كادت تكون مشاعة في الجو مثل شعاعها ونسيمها**  
وكما قال في موضع آخر:

**نضا الدهر عن أسآرها جل لونها فغادرها من لونها في غلائل**

**ثوث تصطلى شمس الظهائر برهة إلى أن أفادت لون شمس الأصائل**  
وهكذا يقول في الرياض:

**توقد فيها كلما تلمح الضحى**

**كواكب يذكو نورها حين تشمس**

أو في الشقائق التي هي:

تصرف لأبصار كحلن بها ليرين كيف عجائب الحكم  
شعل تزيدك في النهار سنى وتضيء في محلولك الظلم  
أعجب بها شعلاً على فحم لم تشتعل في ذلك الفحم  
وهكذا يقول في كل شيء

وليست حاسة البصر متفردة بهذه القوة بين حواس ابن الرومي  
ولاحظها من الذكاء والتوفر بأوفر من حظ غيرها، فإن الرجل كان  
يسمع ويشم ويدوق ويتلمس كما كان يبصر ويتصور، فلا تقصر  
حاسة من حواسه عن أختها ولا تشكو أحدها كلالاً أو فتوراً في  
حصتها من التمييز والشعور، وهو القائل في وصف صوت:

صوت ندى وأنفاس مساعدة كأنما نفس منهن أنفاس  
يظل سامعه لدنا مفاصله كأنما فترت أوصاله الكاس

وفي وصف مغنية:

مد في شأو صوتها نفس كا ف كأنفاس عاشقها مديد  
وأرق الدلال والغنج منه ويراه الشجا فكاد يبيد

فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد  
فيه وشي وفيه حلي من الند غم مصوغ يختال فيه القصيد

فكأنه قد بلغ في تحسس الصوت مرتبة الموسيقيين الذين  
يتمثلون للأنغام ألواناً وزخارف وأوشية تكاد تنطبع في صفحة الخيال  
أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها في قرارة الوجدان. وهو لا يدع  
لك أن تشرح أو تستخلص ما تقرأه من كلامه حتى يقول لك بالعبارة  
الصريحة أنه يصل بين الرؤية والسمع ويترجم بين الحاستين فينقل إلى  
لغة العيون ما تضمنته لغة الأذان. وإليك ما يصف به إحدى القيان:

ذات صوت تهزه كيف شاءت مثلما هزت الصبا غصن بان  
يتشى فينفض الطل عنه وفي تشيه مثل حب الجمان  
ذلك الصوت في المسامع يحكي ذلك الغصن في العيون الرواني

ثم يستطرد إلى تمييز الأنغام فيقول:

جمهوري بلا جفاء على السم مع مشوب بغنة الغزلان  
فيه بم وفيه زير من الند غم وفيه مئال ومئان  
فتراه يجمل في السمع حيناً وتراه يمدق في الأحيان

رخمته ورققرته وضاهى فعلها الأحمران والأسمران  
فهو يحكي ترقرق النهى في الر يح لميني ذي غلة صديان  
يلج السَّمْعَ مستمراً إلى القلب سب بلا آذان ولا استتذان

وانك إذا قرأت مدائحه الأخريات في القيان المحسنات وأهاجيه  
في شنطف ودبس وأبي سليمان ومن لا يجيد هذه الصناعة من المغنين  
والمغنيات علمت أن له أذنًا واعية تهفو إلى السماع الجميل وتتفر من  
السماع القبيح، وإذا قرأت مبتكراته في فضائل الأزهار والرياحين  
ولذة الاستمتاع بروائحها وتمييزه لمراتبها علمت أنه كان يستروح من  
جمال مشموماتها مثل ما كان يستروح من جمال مناظرها، وإذا قرأت  
ما قال في الموز الذي "يدفعه البلع إلى القلب" وفي المشمش الذي إذا  
رأيت بسنانه "فأيقن بحق أنه لطيب" وفي الدجاجة التي تلوح له  
"سميطة صفراء دينارية" والتي "يكاد أهابها يتفطر" أو قرأت  
مقطوعاته في القطائف والفطائر واللوزينج والحلوى التي كان يقرظها  
ويفتن في تشبيهها علمت كيف كان النهم بالمناظر والطعوم بابا عنده  
للنهم بالطعام، بل حسبك من دليل على شراهة حاسة الطعم عنده وقوة  
التذاه بها قوله أنه ما كان ليحفل بالموت أو ليجزع من القبر "لولا  
فواكه أيلول...!"

وحاسة اللمس في هذه الأداة الحسية اليقظى كحواس البصر  
والسمع والشم والطعم في الدقة والرفاهة والانتباه. فهذا هو ذا يصف  
الريح الشمالية:

وشمال باردة النسيم تشفي حرارات القلوب الهيم

.....

شاردة في الليل بالنسيم بين نشير الروض والخيشوم

كأنها من جنة النعيم

وهاهو ذا يصف الليل في شهر أيلول:

يا حبذا ليل أيلول إذا بردت فيه مضاجعنا والليل سجواء

وجمش القر فيه الجلد فائتلفت من الضجيعين أحشاء فأحشاء

أو هاهو ذا يصف البارد:

ألذ من معتق الرساطون وقهوتي فطر بل وكركين

رجرجة من ماء ليل تشرين كرونق الصيف اليمان المسنون

بات على طود نياف العرنين تنفحها الريح برس ممنون

في شطر كوز صنع طب أفنون أخضر في خضرة جرو اليقطين

ألست يا محرومها بمغبون

فها هنا تلمس معه برد الهواء الذي "يجمش" الجلود والأحشاء. بل هاهنا يخيل إليك أن لبرد الماء في "شطر الكوز" الأخضر ثقلاً راسباً ينقع الغلة بالرجرجة قبل أن ينقعها بالشراب، وأن الشاعر ما اختار "معتق الرساطون، من أسماء الخمر إلا أنها كلمة مجسمة أشبه بالرصاص البارد الذي ترى لاستقراره راحة كراحة الظمآن بعد الإرتواء. ثم تعيد نظرك في الأبيات فتعجب ما هي الحاسة التي لم تشترك في وصف هذه الأبيات؟! أهي حاسة البصر وهي ترى للماء رونقاً كرونق السيف اليمان المسنون، وترى خضرة الكوز كأنه جرو اليقطين، وترى "شطر" الكوز وهو كأنما تطلق من برودة ما فيه، وترى صنعة الكوز فإذا هي صنع قادر صناع؟ أم هي حاسة السمع وهي تصغي إلى رجرجة الماء ونفح الريح؟ أم هي حاسة الري وهو هنا نافع لا يبقى من الظمأ بقية في الصدور؟ أم هي حاسة الخيال وهو يرتفع بالكوز إلى رأس الطود النياف العرنين ويشبع القلب بالخمير المجلوبة من قطر بل وكركين؟ فأوجز ما يقال في تصوير ابن الرومي لهذا الكوز أنه قد التهمه حساً بكل ما فيه من منظور ومسموع ومشروب ومتخيل وملموس.

فهذه أيها القارئ نفس تامة الأداة تشعر شعوراً شديداً بالحياة من حيثما واجهتها وتداخل الطبيعة في كل جزء من أجزائها. فقد عاش صاحبها يوماً يوماً من عمره، وناحية ناحية من وجدانه ولبس الحياة ولابسته.

**ودامت الدنيا له غضة كأنها الجارية الناهد**

وليس الأمر كله حساً بالظواهر كذلك الحس الذي لا مذهب له وراء العيون والأذان والأناف، ولا هو بالدقة التي ترهف الحواس إرهافاً فلا يكون قصاراها إلا أن تقابل بين المرئيات والمسموعات أو بين هذه وتلك وبين المشمومات والمموسات.. كلا! فإن هذه اليقظة الحسية لتصاحبها يقظة في الشعور الباطني تسري به في كل مسرى وتنفذ به إلى كل منفذ وترجم العواطف والأخلاق كما تترجم المناظر والألحان، فإذا تتبع "المكر" في خبايا الفكر فهو القائل في ذلك قولاً لا يسبقه فيه شاعر:

لك مكر يدب في القوم أخفى من دبيب الغذاء في الأعضاء

أو دبيب الملل في مستهامين إلى غاية من البغضاء

أو مسير القضاء في ظلم الغيب ب إلى قاصد له بالتواء

وإذا جال الحزن في نفسه بدت منه على الكون غشاوة ولاح له  
كأنما نفخ في الصور ودمر كل عامر

وأظلمت الدنيا وبأخ ضياؤها

نهاراً وشمس الصحو حيرى على القمم

.....

وأبدى اكتئاباً كل شيء عملته

وأضعاف ما أبداه من ذاك ما كتم

ثم عرف أنه هو الحزن الدخيل، وليست الدنيا البادية للعيان هي  
التي يراها بتلك النظرة الشاحبة فقال:

**كذاك أرى الأشياء إما حقيقة**

**بدت لي وإما حلم مستيقظ حلم**

**ولم يحلم اليقظان إلا وقد أتت**

**على لبه دهياء هائلة الفقم**

وقد يتأمل المرأة فإذا هو محيط - في بيت واحد - بسر "الأنوثة"  
كله، وبما في المرأة من ضعف وقوة، وبما هنالك من العجب في أن  
تكون هذه المخلوقة العجيبة إنساناً كالرجل وهي والرجل جسدان  
مختلفان وطبعان متباينان، وأن تكون غريبة عنه وهي قرينة له ما عن  
مقارنتها محيص. وذلك كله ملحوظ في البيت الذي يقول فيه:

**ومن عجائب ما يمنى الرجال به مستضعفات لنا منهن أقران**

ولا عجيبة هنا إلا العجيبة التي يحسها من أحس سر الأنوثة وسر  
الرجولة وأحاط بالتوفيق الغريب بين هذين الإنسانين حيث يفترقان  
وحيث يلتقيان، واستوعب لغز "الجنس" ببديهة واسعة لم يحجبها عن  
ذلك اللغز أن الجنس أشيع ما يرى في عالم الإنسان والحيوان.

وأما وقد ذكرنا المرأة ولغز الجنس المنوط بها، فقد يكون من  
الواجب أن نعرف مقدار ما شغلته من هذه النفس وحركته من هذا



الإحساس، فإذا كان ابن الرومي عابداً للحياة، فالمرأة ولا ريب كاهنة هذا المعبد التي تتم على يديها مراسم العبادة، ومحورها الذي تلتف حوله الشعائر والقرايين، وإذا كان ابن الرومي نفساً تيقظت فيها أداة الحس والشعور ففي المرأة ولا ريب تلتقي أشد مغريات الحس وأعمق بواعث الشعور. ولا بد من شأن لهذه "المخلوقة" في حياة هذا الشاعر. فما هو هذا الشأن؟ وما حقيقته؟ وما مداها؟ وهل هو شأن (المرأة) أو هو شأن (امرأة) خاصة أو أكثر من امرأة خاصة؟ وهل عشق؟ وهل أحب؟ وهل عرف ما هو الحب الذي نعني به شيئاً أكثر من العشق وأكثر من الغرام؟؟

فأما هذا الشأن فقد كان ولا يعقل إلا أن يكون، وما فرغ ابن الرومي قط من شأن النساء ولا كره الشيخوخة إلا لأنها تصده عن المرأة أو تصد المرأة عنه، فلأجلها قبل كل شيء كان يخاف غائلة السن ولأجلها قبل كل شيء كان يتمنى خلود الشباب:

أخشى كسادى على النساء إذا أسند

سنت والسن جملة الخبيل

وأنسى من كسادهن على سـ

نى لأولى بالخبوف والوجل

ولأجلها كذلك تمنى أن تنعكس أيام العمر فيتقدم فيه الهرم ويتأخر فيه الشباب:

فالعيش طعمان عند ذائقه مر التوالي مستعذب الأول

من غسل تارة ومن صبر لهفي لتأخير عقبة العسل

لو أنها أخرجت لطاب بها العي ش وإن جاوزت شفا الأجل

وفي وسعك أن تقول أنه عرفت "العشق" الذي لا يعرفه إلا من  
نشبت علاقته بامرأة واحدة دون سائر النساء ، فوصف ما وجده من  
هذا العشق في غير موضع وقال من ذلك:

قد كنت أبكي لأصحاب الهوى زمنا

فهل لي الآن من باك فيبكي

أهكذا يجد العشاق كلهم؟

يا رحمتا للمحبين المساكين!

وقال:

الحب داء عياء لا دواء له

تضل فيه الأطباء النحارير

قد كنت أحسب أن العاشقين غلوا

في وصفه فإذا في القوم تقصير

سقىا لأيام لم أخبره تجرية

إلا بما وصفت عنه الأخابير

بل جرب الغيرة فقال في تهوينها على العاشق ما لا يقوله إلا غيور:  
إذا خلة خانتك بالغيب عهدا فلا تجعلن الحزن ضرية لازب  
وهب أنها الدنيا التي أنت موقن بفرقتها إذ أنت في شأن لاعب

فهو قد عشق وغار وكابد لوعة الرغبة التي يحصرها العشق في  
إنسانة واحدة بين سائر النساء وفارق وناجى وذكر وقال من ذلك في  
معشوقة فارقها على أمل اللقاء:

أعلى العهد أنت أم حلت عنه جعل الله قبل ذاك مماتي

لست أنسى امتناع صبرك للتوديع والسبين مؤذن بشتات

إلا أن هذا كله عشق وليس فيه حب. وقد يكفي الإحساس  
والعاطفة لإضرام العشق واغرام المرء بامرأة يشتهيها ويغار عليها  
ويشعر نحوها بذلك الشعور الفطري الذي ركب في عامة الرجال  
وعامة النساء. أما الحب الذي نعنيه فلا يكفي فيه الإحساس  
والعاطفة ولا بد فيه من "الروحانية" أو الزهد والتضحية ونكران  
الحياة ويقترن ذلك بالتصوف والارتفاع بالمرأة إلى ما فوق مرتبتها في  
الطبيعة وفوق حظها من محاسن الأجسام.

إذ الطبيعة لا تعرف في المرأة إلا أنها أنثى وكذلك العاشق، أما المحب فإنه قادر على أن يفيض من روحانيته نوراً على من يحب وأن يحفها بهالة علوية قد يهابها وقد يخشع لها في بعض المواقف خشوع المتسكين. ولم يكن لابن الرومي نصيب من هذه الروحانية ولا من ذلك النور، فما كانت المرأة في حسه أو عاطفته إلا أنثى طبيعية ومخلوقاً جميلاً فيه متعة للأعين ومسرة للقلوب، ونساؤه كلهن نساء المتعة والمسرة على نسق واحد يلخصه مثل هذا البيت:

**حوراء في وطف قنواء في ذلف لفاء في هيف عجزاء في قيب**

وهو في هذا أيضاً وفي "العبقرية اليونانية" وللصورة التي رسمها اليونان للجمال "فينوس". فقد كان اليونان طبيعيين في الجمال وطبيعيين في العشق ولم يكونوا روحانيين في شعر ولا فلسفة ولا تصوير، وخالصة الحب عندهم أنه نسخة من حب "خلوى ودفنيس" في غابة حفلت بالألوف من نسخ هذا الحب بين أزواج الطير والحيوان، فإذا تنزه فهو حب عصفور لعصفورة أو ظبي لظبية أو حيوان جميل لحيوانة جميلة، يخلو من الكثافة ويزدان بالخفة والرشاقة، ولكنه لا يخلو من "الجسدانية" ولا من "الطبيعة" ولا يفارق الأرض ليصعد إلى سماء "الروحانية" والنور. وإذا تنزه بعد ذلك فهو صداقة حامية يشترك فيها الفكر والذوق والغريزة، ولا يفسح فيها مجال كبير للنزاهة والتقديس.

### حب الطبيعة

وننتقل من ذلك إلى الخاصة الأخرى من خواص الطبيعة اليونانية وهي حب الطبيعة.

فقد وصف الطبيعة شعراء كثيرون ولم يمنحها الحياة إلا قليلون! أما الذين منحوها حياة نحبها وتحبنا ونعطف عليها وتعطف علينا ونناجيتها وتناجينا فأقل من هؤلاء القليلين..

وذاك أن الشاعر قد يؤخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها وأخضرها ويفتن بما فيها من الزراكش والأفانين ثم لا يعدو بذلك أن يمدح شيئاً قد يجد مثله في ألوان الحلي وأصبغ الطنافس ونقوش الجدران، أو نحن نخطو وراء ذلك خطوة فنقول أنه لا يعدو بذلك أن ينظر إلى دمية فاتنة يروقه منها وجه مليح وقوام ممشوق وحسن مفاض على الجوارح والأوصال، ولكنه لا يتطلع منها إلى عطف ولا يفتش فيها عن طوية.

وقد يستريح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل، ومهاد وثير، وهواء بليل، وراحة من عناء البيت وضجة المدينة، فلا يعدو بذلك أن يستريح إليها كما تستريح كل بنية حية إلى الماء والظل والهواء - كذلك تهجع السائمة في المروج، وكذلك تهتف الضفدع في الليلة القمراء..

وقد يمنحها الشاعر حياة من عنده أو من عند الخرافات والأساطير فإذا هي حياة بغيضة لا تصلح للتعاطف والمناجاة ولا يصدر عنها إلا الفرع والإحجام ولا تقوم بينه وبينها إلا الحواجز والعداوات.

أما الطبيعة التي تحب وتناجي ويتم التعاطف بين الشاعر وبينها عن ثروة غزيرة من الشعر والشعور فهي طبيعة الحور الخافقات في الهواء، والعرائس السابحات بين الأمواج، والعداري الراقصات في عيد الربيع، والجنيات الهامسات في رفرفة النسيم ورقرة الغدير وحنين الصدى وحفيف الأغصان، أو إن شئت فقل إنها هي الطبيعة العامرة بما في البروق والرعود والسموات والأعماق من بطولة وعظمة، ونضال جياش بالغضب الظافر، والسطوة المجيدة، والخطر المثير، والشجاعة التي تقدم ولا تحجم وترجو ولا تخاف، أو إن شئت فقل إنها هي الطبيعة التي تبت الإغراء في كل شيء حتى ليحذر الملاح لجة البحار مخافة أن تستهويه بنات الماء من وراء زرقة الأمواج، فيثب إلى أحضانها وكأنما يثب إلى أحضان عروس طلال بها عهد الغياب.

فعلى هذا النحو تتجلى الطبيعة للعبقرية التي تحبها وتمنحها الحياة. فليست هي دمية ولا حيلة، وليست هي مروحة للهواء ولا مجلساً للمنادمة، ولكنها قلب نابض وحياة شاملة ونفس تخف إليها وتأنس بها و"ذات" تساجلها العطف وتجاذبها المودة، ثم هي عمار لا خواء فيه وأسرة لا تبرح منها في حضرة قريب يناجيك وتناجيه ويعاطيك الإخلاص وتعاطيه.

وقد كان ابن الرومي يحب الطبيعة على هذا النحو ويستروح من محاسنها نفساً تسبي الناظر إليها وتتبرج له "تبرج الأنثى تصدت للذكر" ويرى وراء هذه الزينة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة:

فهى فى زينة البغى ولكن هى فى عفة الحصان الرزان

ولا يقول هذا القول على سبيل الاستعارة اللفظية ولكنه يقول ويصف الطبيعة الوصف الذى يقتضيه ذلك الشعور ويليهِ ذلك التصور، فيشف وصفه لها عن شغف الحى بالحى وشوق الصاحب إلى الصاحب، وتسمع من تشبيهه بها رنة طرب أو شجو لا تخرج إلا من نفس مفعمة بأصداء الطبيعة قد نفذت إلى طويتها وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور. فهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع على الأرض "خدأً أضرع" من دهشة الفراق، وهو يحيا مع النوار حين تخضل بالدمع عيونه وتهبط مع الليل شجونه، وهو يحيا مع الذباب المغرد والطير الساجع فى ساعة الغروب التى يمتزج فيها الحنان الذائب بالشوق الخفيض، وهو ينتظم ذلك كله فى أنشودة واحدة لم تدع مزيداً لفن اللون والحركة ولا مزيداً لوجى الخيال والسليقة:

إذا رنقت شمس الأصيل ونفضت

على الأفق الغريبى ورسا مذعذعا

وودعت الدنيا لتقضى نحبها

وشول باقى عمرها فتشعشعا

ولاحظت النوار وهى مريضة

وقد وضعت حدأً إلى الأرض أضرعا

كما لاحظت عواده عين مدنف  
توجع من أوصابه ما توجعا  
وظلت عيون النور تخضل بالندى  
كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا  
يراعينها صوراً إليها روانيا  
ويلحظن إلحاظاً من الشجو خشعا  
وبين إغضاء العراق عليهما  
كأنهما خلاً صفاء تودعا  
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة  
من الشمس فاخضرا اخضراراً مشعثعا  
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله  
وغنى مغنى الطير فيه فسجعا  
وغرد ربعي الذباب خلاله  
كما حثت النشوان صنجا مشرعا



وهو يعرف الربيع حياة تتحرك في الوحش والطير كما يعرفه  
زخرفاً تتحلى به الأرض والسماء. لأنه وليمة الحياة للأحياء..  
تجد الوحوش به كفايتها والطير فيه عتيدة الطعام  
فظباؤه تضحى بمن تطح وحمامه يضحى بمختصم  
إن الربيع لكالشباب وإن الصيد كف يسعه لك الهرم

وهو ينتشي مع الطيور والأغصان إذا بعثت الشمال بتحياتها و:  
هبت سحيراً ففناجى الغصن صاحبه موسوساً وتنادي الطير إعلانا  
ورق تغنى على خضر مهدلة تسمو بها وتشم الأرض أحيانا  
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزة عطفه نشوانا

وهو يستمع إلى الروضة في بكائها وشدوها إذ هي:

يتداعى بها حمام شتى

كالبواكي وكالقيان الشوادي

من مئانٍ ممتعات قران

وفراد مفجمات وحاد

تتغنى القمران منهن في الأ

يك وتبكي الفراد شجو الفراد

وهو يفهم الشعر الذي لا ينشده صاحبه للأجر والصنعة :

لكن كما راقى القمري جنبه فظل يتبع تغريداً بتغريد

وهو يحسن الإصغاء إلى سر الحياة الكامنة في هذه الأرض

وينصت إلى ما يبوح به الربيع في نجواها إذا :

لم يبق للأرض من سر تكاتمه

إلا وقد أظهرته بعد إخفاء

أبدت طرائف وشي من زواهرها

حمرأً وصفراً وكل نبت غبراء

وهو يحسن جمال الطبيعة من

كل جارحة في نفسه إذا بدت للعين

برياض تخايل الأرض فيها

خيلاء الفتاة في الإبراد

## منظر معجب، تحية ألف

### ريحها ريح طيب الأولاد

وقد بلغ من قوة هذا الإحساس فيه أن تجاوز حيز البديهة إلى حيز التفكير، كأنه التفت إلى نفسه فأدرك من طول المراقبة وتواتر الإحساس المتشابه علة أنسه بالطبيعة، وعلم أنه أنس مستمد مما يفيضه عليها من دلائل الحياة، فقال في أبيات يصف بها الأغصان:

تلاعبها أيدي الرياح إذا جرت فتسمو، وتحنو تارة فتؤنس  
إذا ما أعارتها الصبا حركاتها أفادت بها أنس الحياة فتؤنس

ولما شغف بالشباب ذلك الشغف المتوهج لم ينس معه الشغف بالطبيعة ولم يفرق بين ربيع وربيعة وبين ثمراته وثمراتها: بل خلع من شبابه عليها وخلع من شبابها عليه ومزج بينهما مزجاً لا تخاله يكون إلا في مهجة واحدة وجسد واحد. فإذا تذكّر الشباب فاسمع ما هذا الذي يذكره بالشباب:

يذكرني الشباب صدى طويل إلى برد الثنايا والرضاب  
وشح الغانيات عليه لا عن ابن شبيبة جون الغراب  
يذكرني الشباب جنان عدن على جنبات أنهار عذاب

تقيء ظلها نفحات ريح تهز متون أغصان رطاب  
إذا ماست ذوائبها تداعت بواكي الطير فيها بانتحاب  
يذكرني الشباب رياض حزن ترنم بينها زرق الذباب  
إذا شمس الأصائل عارضتها وقد كريت تواري بالحجاب  
وألفت جنح مغربها شعاعاً مريضاً مثل ألحاظ الكعاب  
يذكرني الشباب سراة نهى نمير الماء مطرد الحباب  
قرته مزنة بكر وأضحى ترققه الصبا مثل السراب  
على حصباء في أرض هجان كأن ترابها ذفر الملاط  
له حبك إذا اطردت عليه قرأت بها سطوراً في كتاب  
تذكرني الشباب صبا بليل رسيس المس لاغبه الركاب  
أتت من بعدها ما أنسحت ملها على زهر الريا كل انسحاب  
وقد عبقت بها ريا الخزامى كريا المسك ضوع بانتهاب  
يذكرني الشباب وميض برق وسجع حمامة وحنين ناب

فيا أسفأ ويا جزعأ عليه ويا حزنأ إلى يوم الحساب  
أأفجع بالشباب ولا أعزى؟ لقد غفل المعزي عن مصابي  
تفرقتا على كره جميعأ ولم يك عن قلى طول اصطحاب  
وكانت أيكتي ليد اجتناء فعادت بعده ليد احتطاب  
أيا برد الشباب لكنت عندي من الحسنات والقسم الرغاب  
بليت على الزمان وكل برد فبين بلى وبين يد استلاب  
وعزأ علي أن تبلى وأبقى ولكن الحوادث لا تحابي  
لبستك برهة لبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب  
ولو ملكت صونك فاعلمنه لصنتك في الحرير من العياب

وهذا حنين إلى الطبيعة وشبابها وحنين إلى العمر وشبابه لا تدري  
أين يبتدئ أحدهما وأين ينتهي الآخر. فهما حنين واحد وشباب واحد  
وفاكهة واحدة وروضة واحدة. وإنك لتذوق الفاكهة فتذوق فيها طعم  
الشفاه والحدود وتجد فيها مس الضفائر والنهود وتجمع فيها بين وليمة  
الحب ووليمة البستان بعد أن تسمعه يقول:

متع الطيبي من جنى غصنك اللذ ن يمتعك منه قبل انخضاده  
من عناقيده وتفاحه الغض ورمانيه ومن فرصاده

أو بعد أن تسمعه يقول:

أجنت لك الوجد أغصان وكشبان فيهن نوعان: تفاح ورمان  
وفوق ذينك أعناب مهدلة سود لهن من الظلماء ألوان  
وتحت هاتيك عنك تلوح به أطرافهن قلوب القوم قنوان  
غصون بان عليها الدهر فاكهة وما الفواكه مما يحمل البان  
ونرجس بات ساري الطل يضربه وأقحوان منير النور ريان  
ألفن من كل شيء طيب حسن فهن فاكهة شتى وريحان

فلا افتراق عنده بين الطبيعة والشعور، يكاد لا ينظر إلى  
الحسان ألا تذكر الروضة والبستان، أو يكاد لا ينظر إلى الروضة  
والبستان إلا بنظرة تثير الرغبة وتوقظ الأشجان..

ولو كان للطبيعة في بلاد العراق ظواهر أخرى غير هذه الظواهر  
التي توزع وصفها في قصائده ومقطوعاته لقرأت له في تلك الظواهر  
الأخرى وصفاً على هذا الأسلوب يحييها ويناجيها ويلهمها القول والعمل

ويزودها بالسير والأحاديث، كما ترى في الأساطير المروية عن بلاد الرعود والبراكين والمغاور والأجام. لأننا لا نحسب هذه القريحة قادرة على أن تتخيل شيئاً من الأشياء بغير حياة، ولا على أن تفصل بين عالم الطبيعة وعالم الحياة في أي البلاد.

### التشخيص والتصوير

والقريحة المطبوعة على إعطاء الحياة مطبوعة كذلك على إعطاء الشخوص، أو على ملكة التشخيص.

ولكننا نحب أن نستثني هنا ذلك التشخيص الذي تلجئ إليه ضرورة اللغة وتسهيل التعبير مع علم المتكلم بما في كلامه من المجاز والمفارقة. فقد يتكلم الشاعر أو غير الشاعر عن الشمس بضمير المؤنث، وعن القمر بضمير المذكر، وقد يسند إليهما فعال الأحياء العاقلة وغير العاقلة، ولكنه بعد تعبير لفظي ليس وراء تصور وليس وراء التصور - إن كان - أثر من الشعور، ولا سيما الشعور المتبادل بين طرفين متعاطفين.

وإنما المقصود بالتشخيص تلك الملكة الخالقة التي تستمد قدرتها من سعة الشعور حيناً أو من دقة الشعور حيناً آخر، فالشعور الواسع هو الذي يستوعب كل ما في الأرضين والسماوات من الأجسام والمعاني، فإذا هي حية كلها لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة، والشعور الدقيق هو الذي يتأثر بكل مؤثر، ويهتز لكل هامسة ولامسة فيستبعد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير

وتوقفه تلك اليقظة وهي هامة جامدة صفر من العاطفة خلو من الإرادة، وهذا الشعور الدقيق هو شعور ابن الرومي بكل ما حوله، وسبب ما عنده من قدرة الأحياء وقدرة التشخيص: قدرة التشخيص التي هي ملكة مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين، وليست قدرة التشخيص التي هي حيلة لفظية تلجئنا إليها لوازم التعبير ويوحىها إلينا تداعي الفكر وتسلل الخواطر.

خذ مثلاً للمعاني "التشخيصية" التي يأتي بها اللفظ والمعاني التشخيصية التي يأتي بها الشعور من أبيات ابن الرومي في مشهد الشمس ساعة الغروب.

فقد ينظر بعض الشعراء إلى الشمس في هذا المشهد فيجعلها حسناء مفارقة، وما دامت حسناء مفارقة فهي معشوقة أو عاشقة، وما دامت معشوقة أو عاشقة فهناك قصة غرام تدور على هذا المعنى إلى حيث ينتهي بها المطاف، وكل هذا لأن الشمس مؤنثة في اللغة العربية وحسناً في تشبيهات الشعراء! فهي قصة مولدة من لفظ عرضي قد يكون لها نصيب من الشعور، وقد لا يكون لها أقل نصيب، أما الشيء الذي لا يمكن أن يخلقه اللفظ ولا التشبيهات ولا تسلسل الخواطر فهو الشعور العميق بوحشة الغروب وما ينعكس من ذلك الشعور العميق على الشمس من ترنيق وضراعة وانكسار ونظر يائس كنظر المريض إلى العواد ووجوم شائع بينها وبين عيون النور التي تغرورق على الأغصان لتدمع وتلحظ إلحاضاً خشعاً من الشجو والإغضاء. فلا بد إذن من شعور يسبق التشخيص ويلقي عليه ظله ويبث فيه من حياته، وأياً كان لفظ الشمس من التأنيث أو التذكير



وأياً كان موقعها من تشبيهات الشعراء، فإن هذا الشعور لا يتغير ولا يضعف ولا يزول.

هذا الشعور هو الذي يسبق كل تشخيص لابن الرومي أو كل "صورة مشخصة" في شعره، سواء تكلم عن بلد أو يوم أو خليفة أو فترة من العمر أو معنى محسوس أو غير محسوس.

فأنت تستخرج من بغداد "صورة مشخصة" حين يقول عنها:

بلد صحبت به الشبيبة والصبا      ولبست ثوب العمر وهو جديد  
فإذا تمثل في الضمير رأيت      وعليه أغصان الشباب تميد

وأنت ترى للمهرجان والنيروز "شخصين" يشبان ويشيبان ويدينان بالأديان ويحدوهما الشوق وتلوح عليهما الهيبة حين يلوحان لك في قوله:

شعب المهرجان لهوك فيه      فقد من غطارف الشبان  
وكذاك النيروز رد عليه      بك شرخ الشباب ذي الريعان  
ولذكرت ذا وذاك جميعاً      سنن الملك في بني ساسان  
عمرأ برهة على دين كسرى      وهما الآن بعده مسلمان

.....

فعلى منظرهما هيبة العد      زونور الإسلام والإيمان

وأحبك حب مولى شكور فهمما وامقان، بل عاشقان  
كل يوم وليلة فرط شوق ونزاع إليك يطلعمان  
فبهذا وذاك حتى يجيئاً غلة فوق غلة الظمآن  
لو أصابا إلى الغلاط سبيلاً غالطا الحاسبين في الحسبان  
أو يخلي عنان ذاك وهذا سبقا موقتيهما في الزمان  
ولوذا إذا هما بك حلا وعزيز عليهما أن يشكوان  
لو أطاقا هناك للدهر قسراً عنك لولا الإزعاج يرتحلان  
حرنا سائقيه أي حران

ولهنوات النفوس "شخوص" عنده يخاطبها وتخاطبه ويعتب عليها  
وتعتب عليه وتسمع بينه وبينها هذا الحوار:  
ليتني ما هتكت عنكن سترا فثويتن تحت ذاك الغطاء  
قلن: لولا انكشافنا ما تجلت عنك ظلماء شبهة قتما  
قلت: أعجب بكن من كاسفات كاشفات غواشي الظلماء

قد أفدتني مع الخبر بالصا حب إن رب كاسف مستضاء  
قلن: أعجب بمهتد يتمنى أنه لم يزل على عمياء  
إلى آخر ذلك الحوار

والشباب روح أو ملك يعيش كما يعيش الرجل وزميله من الجنان  
في بعض الأساطير  
أخي وألفي وتربي كان مولدنا معاً وربتني الأيام حيث ربا

والود كائن حي يعاجله القتل أو يترك الهرم فيموت:  
أمت وديك عبطة فمه دعه على رسله يمت هرما

والعوسج شرير "ملعون" يهجي ويسخر منه ويقال فيه:  
عذرنا النخل في إباء شوك يذود به الأنامل عن جناه  
فما للعوسج الملعون أبدى لنا شوكة بلا ثمر نراه  
تراه ظن فيه جنى كريماً فأظهر عدة تحمي حماه!  
فلا يتسلحن لدفع كف، كفاه لؤم مجناه كفاه!

وإذا كانت هذه قدرة ابن الرومي على خلق الأشكال للمعاني المجردة أو خلق الرموز لبعض الأشكال المحسوسة فإن القدرة التي سبق بها الشعراء في الأمم كافة بغير شك ولا تردد هي قدرته البالغة على نقل الأشكال الموجودة كما تقع في الحس والشعور والخيال. أو هي قدرته على التصوير المطبوع، لأن هذا في الحقيقة هو فن التصوير كما يتاح لأنبغ نوابغ المصورين. فلست أعرف فيمن قرأت لهم من مشاركة ومغاربة أو يونان أقدمين وأوربيين محدثين شاعراً واحداً له من الملكة المطبوعة في التصوير مثل ما كان لابن الرومي في كل شعر قاله مشبهاً أو حاكياً على قصد منه أو على غير قصد، لأنه مصور بالفطرة المهياة لهذه الصناعة فلا ينظر ولا يلتفت إلا تنبتهت فيه الملكة الحاضرة أبداً وأخذت في العمل موفقة مجيدة سواء ظهر عليها أو سها عنها كما قد يسهو المصور وهو عامل في بعض الأحيان.

إنما التصوير لون وشكل ومعنى وحركة، وقد تكون الحركة أصعب ما فيه لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ولا يتوقف على ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسه. ولكن تمثيل هذه الحركة المستصعبة كان أسهل شيء على ابن الرومي وأطوعه وأجرأه مع ما يريد من جد أو هزل وحنن أو سرور، وقد مر بك وصفه لمشيته التي "يفرل فيها" وللأحدب الذي شبهه بالمصفوع وهو يتجمع ويتهياً للصفح ويخشاه! فأضف إليه هنا وصفه لحركة الكتان في حقله:

وجلس من الكتان أخضر ناعم    توسنه داني الرياب مطير

إذا درجت فيه الشمال تتابعت    ذوائبه حتى يقال غدير

ووصفه لحركة الرقاق في يد الصانع:

ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر  
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ووصفه للقمر في سريانه:

وأسفر القمر الساري فصفحته ربا لها من صفاء الجو لآلاء

ووصفه لحركة الري في النبات:

ويحور الخريف وهو ربيع وتسور المياه في العيدان

ووصفه للحركة البطيئة في سير السحائب:

سحائب قيسست بالبلاد فألقيت

غطاء على أغوارها ونجودها

حدثها النعامى مثقلات، فأقبلت

تهادى، رويداً، سيرها كركودها

فإنك تقرأ هذه الأبيات وأمثالها مما سبق أو لم يسبق في هذا  
الكتاب فيروعك منها - أول ما يروع - صدق تمثيلها للحركة في

الجملة والتفصيل. فليس أصدق من وصف ذوائب الكتان بالغدير وهي تتلاحق مع الريح، ثم يتم تصوير الحركة هنا تصوير اللون الأخضر والملمس الناعم والغيم الذي يسري على جلس الكتان مع الليل في وقت الوسن ويسف بجواشيه المطيرة إلى الأرض البليل. فالصورة كاملة لا تنقص منها سمة من سمات المكان والزمان والحركة ولا حظ من حظوظ العين واللمس والخيال، ومثلها صورة الرقاق وهي تكبر في لمح البصر كما "تنداح" الدوائر في صفحة الماء، ومثلها صورة الليلة القمرية وهي كاملة متحركة من بداية الأسفار إلى السريان إلى الصفحة الريا التي تطالعك بالامتلاء والنداوة إلى الصفاء المحيط بكل هذا فالألأء المشرق على ذلك الصفاء. ليس في البيت كلمة واحدة إلا لها مكانها من الصورة ونصيبها من التلوين والتمثيل والتبيين، ومثل ذلك المياه التي تسور في العيدان كأن لها وجيباً أو ديبباً يتبعه الناظر بعينه ويصغي إليه بأذنه، والسحائب التي لا تفرق بين حركتها وركودها لأنها أطبقت على أغوار البلاد ونجودها، وهات ما شئت من صور له في وصف الإنسان والحيوان والنبات والجماد فإنك لتجدن فيها كلها مثل هذا الصدق ومثل هذه الحركة ومثل هذه الحياة. وقد يكون قولنا هذا من تحصيل الحاصل بعد ما سلف من بيان إحساسه باللون ويقظته لكل ما يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يدركه من ظواهر الأجسام وبواطن العواطف والأخلاق، ولكنه تحصيل حاصل غير مألوف ولا مستغن عن بعض الإبانة وبعض التفصيل.

ولو كان ابن الرومي مصوراً لما استغرب منه هذا الولوج بالألوان والظلال والأشكال والحركات. لأنه كان لا يستطيع إذن أن يشرع

في عمله قبل أن يتلقت إلى عناصر الصورة المحسوسة ويجيلها في روعه ويهيئها للظهور على قرطاسه. أما الشاعر فلا ضرورة في نظم الشعر تقسره على أن يلتفت هذا الالتفات الدقيق إلى كل لحظة من لحاحات اللون والظل وكل صغيرة من صفائر الشكل والحركة. فإذا التفت إلى ذلك في عامة شعره بغير ضرورة قاسرة ولا طريقة مسبقة فإنما يلتفت إليه لأنه مطبوع على التصوير ينظر إلى ما حوله فينطبع ما يراه في حسه وإن دق وخفي - كما ينطبع النور البعيد الضئيل في مصور الفلكي المحكم التركيب:

ويودنا أن نثبت الآن قصيدة "المهرجان" النونية برمتها لأنها نموذج واف لشعر ابن الرومي في هذا الباب، ولكننا نجتزئ منها بما يأتي وفيه الدلالة الكافية على هذه الملكة النادرة. قال:

يمن الله طلعة المهرجان كل يمن على الأمير الهجان

.....

مهرجان كأنما صورته كيف شاءت مخيرات الأمانى

.....

وأديل السرور واللهو فيه من جميع الهموم والأحزان

لبست فيه حفل زينتها الدن -يا وزافت في منظر فتان

وأذالت من وشيها كل برد كان قدماً تصونه في الصوان

وتبدت مثل الهدي تهادي رادع الجيب عاطل الأبدان  
فهني في زينة البغي ولكن هي في عفة الحصان الرزان  
كادت الأرض يوم ذلك تفشي سر بطنانها إلى الظهران

.....

وتعود الرياض مقبلات ناعمات الشكير<sup>(1)</sup> والإفتان

.....

زخرفت يوم نعمه حجرات جد موطوءة من الضيفان

.....

حجرات ميممات بناها من فضول المعروف أكرم بان  
لم يكن يقتني المساكن حتى يتقن المجد أيما إتقان  
فأذبلت فيها تهاويل رقم قائمات بزينة المزدان  
ثم قام الكماة صفين من كـ ل عظيم في قومه مرزبان

---

(1)



كلهم مطرق إلى الأرض مغض وعلى سيفه هنالك حان

.....

وتجلى على السرير جبين ذو شعاع يحول دون العيان

يمكن العين لمحة ثم ينهي طرفها عن إدامة اللحظان

فله منه حاجب قد حماه كل عين ترومه بامتهان

فاستوى فوق عرشه بوقار ويحلم من الحلوم الرزان

ثم قام المجدون مثولا ضارين الصدور بالأذقان

ليس من كبرياء فيه ولكن كل وجه لذلك الوجه عان

فتثوا سؤدد الأمير وعدوا فيه آلاءه بكل لسان

حين لم يجشموا التزين لا بل ما تعدوا ما حصل الكاتبان

.....

فقضوا من مقالهم ما قضوه ثم أبو بالرفد والحمالان

بعد ما ارتعوا الأنامل فيما لا تعدوا شهوة الشهبان

من خوان كأنه قطع الروض وإن كان في مثال خوان  
فوقه الطير في الصحف وحاشي ذلك الطير من جفاء الجفان

.....

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيتها حوان  
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان  
ملمقات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان  
مفعمات كأنها حافلات وهي صفر من درة الألبان  
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهروكران  
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان

.....

أوتي الحكم والبيان صبيا مثل عيسى بن مريم ذي الحنان

.....

عجباً منه كيف يسلى ويلهى مع تهييجه على الأشجان

.....

فترى في الذي يصيخ إليه أمرات المحزون والجذلان

فتأمل فهل ترى في وسع المصور القدير أن يلتفت إلى لون أو ظل أو شكل أو خط أو حركة في المهرجان لم يلتفت إليها ابن الرومي في هذه القصيدة؟ وتأمل الشاعر هل تراه في قصيدته إلا كما قلنا في بعض مقالاتنا: "كالرسام الذي بسط أمامه لوحته وأقبل على الوجوه والأشكال يتفرسها ويطيل النظر إلى ملامحها وإشاراتهما وما تشف عنه من المعاني، وتشير إليه من الدلائل ويراقبها في التفاتاتها ومواقفها وحركاتها لينثني بعد ذلك إلى لوحته فيثبت عليها ما توارد على بصره وقريحته من الألوان والمعارف والهيئات من حيث هي تحفة فنية تستهوي الحواس والأذواق؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان واختيال الدنيا بمنظرها فيه وبرود الوشى التي أذلتها للناظرين، واللهو والسرور الذي شمل كل شيء وأدبل له من جميع الهموم والأحزان، ثم يرسم حجرات الأمير بزخارفها وتهاويلها وضيوفاها الغادين إليها الرائحين منها، وقيام الكمأة صفاً بعد صف مطرقين إلى الأرض مغضين بالأبصار حانين على السيوف، ثم يرسم الأمير فوق سريره، وقد طلع على الجميع بوجه مهيب يمكن العين منه لحظة ثم ينهاها عن إدامة اللحظات، ثم يذكر لك وقار الإمارة وسمات الحلم والرزانة بين قوم يعنون له ويجلون قدره من الحب والتبجيل لا من الصلف والكبرياء، ثم يرسم المادحين

بين يديه يرتلون عليه الثناء ضاربين الصدور بالأذقان وينصرفون من حضرته بالعطايا والحملان، بعد ما شعبوا من خوان يلوح في مثل قطع الروض وإن سمي بالخوان، ثم يرسم القيان الكواعب الأبيكار عاطفات على المزاهر عطف الأم على الرضيع بنهود مفعمات، ولكنها صفر من درة الألبان، ثم يرسم أثر الغناء على وجوه السامعين، فإذا هو شجن وسلوى وأميرات من الحزن والجدل وطرب يشوبه السكون وسكون يشوبه الطرب.. فلا تزال في القصيدة تنتقل بين أبياتها من صورة إلى صورة ومن منظر إلى منظر ومن حركة إلى حركة حتى تأتي عليها وقد استعرضت في خيالك متحفاً واسعاً من الأشكال والخطوط عملت فيه القريحة والنظر واشترك فيه الفن والإحساس وروى لك أصدق الرواية عن عين تلمح وتعي ونفس تحس فتستوعب وخيال يدخر الجمال المنظور فيثري بالألوان والسمات..."

زعموا أن بعضهم قال لابن الرومي: "لم لا تشبه كتشبيهاً ابن المعتز وأنت أشعر منه؟ فقال للأئمة: أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله، فأنشده قوله في الهلال:

**انظر إليه كزورق من فضة قد أثقافته حمولة من عنبر**

فقال: زدني.. فأنشده قوله في الأذريون وهو زهر أصفر في وسطه  
خمل أسود

**كأن أذريونها والشمس فيه كالية**

**مداهن من ذهب فيها بقايا غالية**

فصاح واغوثاه! تا لله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك إنما يصف ماعون بيته وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولِي من الناس" إلى آخر القصة.

وقد تصح هذه القصة أو لا تصح، ولكنها على الحالتين تدل على رأي شائع في التشبيه بين الذين كانوا يتعاطون الأدب في عصر ابن الرومي وبين الذين يتعاطونه في هذه الأيام. فلا ين المعتر تشبيهات كثيرة أبلغ من هذه التي مرت في القصة وأجمل وأنقى في المعنى والديباجة، ولكنهم لا يختارون له في مقام التحدي والتعجيز إلا هذه الأبيات وأمثالها، لظنهم أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه والمشبه به وأن الغرض من التشبيه إنما هو مضاهاة أبيض على أبيض وأصفر على أصفر ومستدير على مستدير ومستطيل على مستطيل مما يرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل، فالشاعر الذي يصف النجوم ويشبهها بالجواهر والحلي هو الشاعر غير مدافع وهو المثل الأعلى في هذه الصناعة... ثم يليه الشعراء على حسب الأسعار في سوق المشبهات! وقصاري ما يطلبه الشاعر من التشبيه أن يثبت لك أنه رأى شيئاً من لون واحد وشكل واحد كأنك في حاجة إلى مثل ذلك الإثبات الذي لا طائل تحته، فأما أنه أحس وتخيل وصور إحساسه، وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة، فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل عنده في باب البلاغة والشاعرية، وهذا خطأ بعيد في فهم الوصف والشعر يخرج بهما عن القدرة النفسية إلى القدرة الآلية التي تحكى المناظر الظاهرة كما تحكيها المصورة الشمسية. فالمسافة عظيمة جداً بين شاعر يصف لك ما رآه كما قد تراه المرأة أو

المصورة الشمسية، وشاعر يصف لك ما رآه وشعر به وتخيله وأجاله في روعه وجعله جزءاً من حياته. وليس يعنيك أنت أن يكون الشاعر صحيح العين مطلعاً على المرئيات المتشابهة ليتصل ما بينك وبينه ويقترب وجدانك من وجدانه، ولكننا يعنيك منه أن يكون إنساناً "حياً" يشعر بالدنيا، ويزيد حظك من الشعور بها، وتلك هي مزية ابن الرومي في وصفه وتشبيهه ومزيتة في شعره كله من أوائل شبابه إلى اليوم الذي مات فيه. وينبغي هنا أن نذكر مرة أخرى أن ملكة الشعر غير ملكة الوصف وليستا بشيء واحد كما يفهم كثير من القراء، فمن وصف وشبه ولم يشعر فليس بشاعر... ومن شعر وأبلغك ما في نفسه بغير وصف مشبه فلا حاجة به إذن إلى سرد الصفات لتتم له ملكة الشاعرية..

\* \* \*

من ثم نقول أننا إذا قسمنا العبقريات الفنية إلى أقسام وفصائل فخير ما نفهم به عبقرية ابن الرومي أنها عبقرية يونانية على المعنى المفهوم بين قراء الآداب من هذه الكلمة، إذ لا نعرف صفة لعبقرية ابن الرومي هي أوجز ولا أبين من هذه الصفة المجموعة في كلمة واحدة: فإنه كان محباً للحياة في خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذي عهدناه في جملة الفنون اليونانية، وكان مشخصاً لمحاسن الطبيعة وعناصرها كما شخصتها أساطير اليونان وولدت منها بنات الماء وعرائس الغاب وأرباب السحب والبحار وغيرها من ولائد الذوق والخيال، وكان مأخوذاً بالجمال في كل شيء كما أخذوا به في

شيء، مستغرقاً في الحس الدنيوي كما استغرقوا فيه. أما أنه كان كذلك لأنه من سلالة اليونان فذلك قول لا نجزم به ولا نجزم بنفيه، لأنه يستطيع أن يكون كذلك ولو لم يكن من تلك السلالة التي اختلطت فيها سلالات الشرق والغرب والشمال والجنوب، فما اختص اليونان بإبداع الفنون واستجلاء الجمال، ولا يحسن بأحد أن يدعي ذلك لشعب من الشعوب. وكل ما امتازوا به على غيرهم أنهم منحوا الفنون حرية لم تمنحها في الشعوب القوية التي توطدت فيها الدولة وتوطد فيها الدين فاشتمل على العلوم والفنون وأحاطها بقيود المراسم والموروثات، فلما خضع اليونان لمثل هذا السلطان نضب فيهم ذلك المعين الحر وأخلدوا إلى المراسم والموروثات إلا قليلاً من الحنين المتجدد إلى الفن القديم، وامتياز اليونان بالحرية في الفن فضل عظيم جليل ولكن ما مقدار ما يسرى منه في الدم ويثبت مع الغرائز وينتقل مع السلالات؟ وما هو الحد الفارق بين اليونانية وغير اليونانية في الشعوب الكثيرة التي يتناولها اسم اليونان في آسيا وأوروبا وقبل التاريخ وبعد التاريخ؟.. فأنت ترى أن القول بالوراثة اليونانية في ابن الرومي ليس أسهل ولا أصوب من القول بانفراد هذه الظاهرة الغريبة التي لا تزول غرابتها من بعض الوجوه حتى لو ظهرت في بلاد اليونان. وقد يكون فيما مر بك من شرح مزاجه ونشأته تعليل صالح لهذا الإحساس المتوفز يساعد على تفسيره بعض التفسير، فحسبنا إذن من كلمة العبقريّة اليونانية أنها كلمة مفهومة في لغة الآداب وإن لم تكن مفهومة في لغة الأنساب.





## الفصل الخامس

### فلسفة ابن الرومي

لكل شاعر كبير فلسفة للحياة، أو فهم لها على وجه من الوجوه. وهذه هي مزية الشاعر الكبير على الشعراء الصغار. فإذا قرأت عشرين شاعراً كبيراً فأنت أمام عشرين نسخة من الدنيا، أو أمام عشرين مثلاً لها كل منها مخالف لغيره مستقل عنه في طريقة تمثيله. لأن الشاعر الكبير يشعر بكل شيء حوله. فما من مظهر ولا مخبر إلا وله موقع من قلبه وصدى في ضميره. ولأنه مستقل في إدراكه وشعوره ينحو نحو نفسه ولا ينحو نحو غيره، فإذا قرأت شعره فهناك الدنيا كلها ممثلة في ذلك الشعر على طريقته التي لا تشبهها طريقة. ولا كذلك الشاعر الصغير، أي الشاعر الذي تضيق نفسه بسعة الدنيا فلا يشعر إلا بجانب صغير من جوانبها الكثيرة، والذي يتبع غيره من إدراكه وشعوره فلا يثبت على قدميه لحظة إلا ريثما يتكئ على سند من سابقه أو معاصريه. فإن هذا الشاعر الصغير شذرة من الدنيا وليس بمثال كامل للدنيا برمتها. وقد تكون هذه الشذرة أجمل وأتقن وأحب وأشهى من المثال الكامل في مساحته

الواسعة ومنظره الجسيم، ولكنه شذرة على كل حال أو خريطة بلد واحد لن تغنيك - بالغة ما بلغت من روائها وإتقانها - عن خريطة الأرض الكاملة، وإن قصرت في الرواء والإتقان.

فمن الشعراء الكبار من يريك الدنيا كأنها معرض للجمال، أو يريكها كأنها متنزه للفرجة، أو كأنها كعبة للعبادة، أو ميدان للقتال، أو طريق للعبور، أو ملعب للسرور، أو يريك الدنيا كما هي، وذلك أكبر الشعراء وأعلاهم في مراتب الإلهام. أما الشاعر الذي تسأل نفسك بعد قراءته: ما هي الدنيا؟ وما مثالها في خلدك؟ فلا تهتدي إلى جواب فليس بالشاعر الكبير وأن عد في الجيدين من الشعراء.

فلا بد للشاعر الكبير من إدراك الدنيا كلها، ولا بد لهذا الإدراك من صورة تختلف كثيراً أو قليلاً من سائر الصور، وهذا هو الذي نعنيه بفلسفة الشاعر ولا نتخطاه إلى معنى الفلسفة الشائع بين المفكرين.. إذ لو قصدنا إلى هذا لوجب علينا أن نقول أن الفلسفة أبعد المطالب عن ابن الرومي وأن ابن الرومي أبعد الناس عن الفلسفة، بل لوجب علينا أن نقول أكثر من ذلك أن قريحة ابن الرومي كانت نقيض القريحة التي يحتاج إليها الفيلسوف، لأن الفيلسوف يجرّد كل شيء ليراه بعين الفكر حيث تلتقي الكليات وتنعدم الفوارق والأجزاء، وابن الرومي كان يجسم كل شيء ليراه بعيني الفنان في عالم الأنوار والأشكال والخطوط والحركات.

وربما خطرت للقارئ وساوس ابن الرومي وأوهامه وأسرارته فحسبه من أهل الباطن الذين ينظرون إلى الدنيا نظرة الروحانية،

وقرب ما بينه وبين الفلاسفة المجردين على هذا الاعتبار. فيجب علينا كذلك أن نبادر إلى القول بأن ابن الرومي كان نقيض أهل الباطن المتعمقين كما كان نقيض الفلاسفة المجردين، لأن أهل الباطن يتجاوزون الظواهر إلى البواطن ويحسبون الظواهر وهما أو كذباً لا وجود له إلا في الحس المضلل المخدوع. أما ابن الرومي فكان يعكس الأمر فيلبس الأسرار ثوب الظواهر ويلحق عالم الخفاء بهذا العالم المجسم المحسوس، فالباطنيون ينفون الظواهر ويثبتون الأسرار وابن الرومي ينفي الأسرار ويثبت الظواهر، وكان يلحى الناس لأنهم يغفلون عن نذير الخفاء ولا يتقونه كما يتقون نذير العيان. لأن الخفاء عنده إن هو إلا عيان يراه ويلمسه ويتجنبه ويلقاه...

لقد كان الرجل "جديد" الإحساس في شبابه وهرمه.. فعامله أبداً عالم الطفولة الخالدة الذي يطالع صاحبه أبداً ببهجة جديدة أو خوف جديد: طفولة خالدة ولكنها مروعة لفرط ما ألح عليها من السقم والألم. فهي في هذه المأدبة الإلهية التي تسمى بالدنيا فاغرة الحس أبداً لكل طارئ جديد من طوارئ الإغراء والترويع، طفولة لم تزدها السنون إلا إمعاناً في الطفولة وإغراقاً في اللعب وشوقاً إلى الحلوة ورهبة من العصا واحتياطاً على هذه الرهبة، فلن ترى في شعره كله قولة واحدة إلا هي قولة الطفل الكبير الذي يفهم أضعاف ما يفهم الكبار ولكنه لا يحس إلا كما يحس الأطفال.

أيتكلم عن الصبر؟ أيتكلم عن العزلة؟ نعم، ويتكلم عن الزهد والعفة والتقوى وعمما شئت من الحكم والنصائح!؟ وزد عليه أنه يتكلم عنها كلام النية والعقيدة لا كلام الخبث والرياء، ثم ما هو

إلا أن تعروه بادرة واحدة من بوادر الفرح أو الحزن وغواية واحدة من غوايات الربيع أو الخريف حتى تذهب جميع هذا الحكم والنصائح في الرياح وينطلق الطفل الكبير مصفقا للمتعة الجديدة أو صارخا من ألم الجديد لأن الكلمة العليا في هذه "الفلسفة" للإحساس الطارئ لا للفكر السابق أو الإحساس القديم أتميمها إذن فلسفة "أبيقورية" تشد اللذة أينما كانت وتهرب من الألم أينما كان؟.. إن كنت تسمى الطفل الذي يتهافت على الحلوى ويجفل من العصا "أبيقوريا" فلك أن تعد ابن الرومي في جماعة الأبيقوريين، ولكن الأبيقورية في رأيي ليست "جدة" الإحساس المتفزر للمسرات والآلام وإنما هي فتور الإحساس واستكانة الشيخوخة إلى ما يريح، ونفورها مما يزعج ويشير. وهي في معناها الشائع نقص في الإحساس وليست بزيادة فيه وإلا فهل تظن أبا نواس شعر بلذعة الألم أو بنضرة السرور قط؟.. هذا هو الأبيقوري في الأبيقوريين.. وهو كما تعلم واحد من أولئك المترفين الذين يطلبون اللذة ويشفقون من الأم لأنهم فاترون فارغون لا لأنهم مرهفو الحس مغممون بالحياة. أما ابن الرومي فكان يألم ويسر لأن حياته هي الألم والسرور، أو لأنه لا بد له من أن يحس ولا بد للإحساس من أن يكون بعض الأم وبعض السرور وليس في وسعك أن تعطله من الإحساس بهذا أو بذاك إلا إذا عطلته من الحياة، وليس في وسعه هو أن يطلب اللذة باختياره أو يجتنب الأم باختياره. لأن الجدول الرقراق لا يطلب الصفاء ولا يجتنب الكدر، وإنما يصفو ويكدر لأنه ماء ولن يكون إلا من الماء.

فعالم ابن الرومي هو عالم الطفولة الخالدة لا عالم الشيخوخة  
الوادعة أو عالم "الأبيقوريين".

والطفولة الخالدة هي الإحساس الجديد بالألم والإحساس  
الجديد بالسرور. ولقد دام له هذا، الإحساس الجديد كأحسن ما  
يدوم بعد فقد الشباب، ولكنه لفرط طمعه في الحياة كان لا يقنع إلا  
بأن يجمع بين "بشاشة الأوطار" وقدرة الشباب.



## الفصل السادس

### صناعة ابن الرومي

يتفق لقارئ الشعر أن يعرض له في مطالعته بيت غير منسوب إلى صاحبه فينسبه إلى شاعر معروف عنده ثم يجد بعد البحث أن فراسته قد صدقت وأن البيت لذلك الشاعر بغير خلاف، ولكنه قد يعلم السبب الذي دعاه إلى نسبة البيت إليه وقد يتعذر عليه أن يرد ظنه إلى سبب غير البداهة التي لا تُعلل. لأن سمات الشعراء التي تبدو في قصائدهم وأبياتهم بعضها ظاهر يسهل تتبعه والاستدلال عليه وبعضها خفي يجري في الكلام مجرى الملامح في الوجوه. تعرفها وتعرف بها الأبناء والأباء ولكنك لا تردها إلى سبب محدود.

وليس كل الشعراء ذوي ملامح واضحة يعرفهم بها القراء، ففي العربية مثلاً ألوف من الشعراء لا تعد منهم مائة بين أصحاب الملامح الواضحة التي تعرفهم بها في القصيدة الواحدة بله البيت الواحد. وفي طليعة هؤلاء من الشعراء المحدثين - غير ابن الرومي - المتنبى والمعري والشريف الرضي، والبقية درجات في هذه الخصلة تعرفهم بسهولة حيناً، ولا تعرفهم حيناً إلا بعد جهد وتحقيق.

بعض هذه الملامح أو العلامات نفسي لا نعود إليه في هذا الفصل لأنه سبق في مواضع من الفصول المتقدمة، وبعضه لفظي يرجع إلى الصياغة وأسلوب التعبير والنزعة الفنية التي ينفرد بها الشاعر بين الشعراء وإن تساوا في الإجابة كما ينفرد الجميل بين ذوي الجمال بسمة خاصة تستحب فيه وأن تساوا كلهم في الجمال. وهذا الذي نعنيه بالصناعة ونتم به مباحث هذا الكتاب.

فالعلامات البارزة في قصائد ابن الرومي هي طول نفسه وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة أبياتاً متفرقة يضمها سمط واحد، قل أن يطرد فيه المعنى إلى عدة أبيات وقل أن يتوالى فيه النسق توالياً يستعصي على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير. فخالف ابن الرومي هذه السنة وجعل القصيدة "كلاً" واحداً لا يتم إلا بتمام المعنى الذي أرادته على النحو الذي نحاه، فقصاصه "موضوعات" كاملة تقبل العناوين وتتحصر فيها الأغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها، ولو خسر في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة.

ولا ريب أن هذا الاستقصاء كان سبباً من أسباب الإطالة ولكنه لم يكن كل السبب، لأن ابن الرومي كان يطيل القصائد حفاوة بالمدوحين وإكباراً لشأنهم وإظهاراً لعنايته بإرضائهم، وكان يرى فرضاً عليه للمدوح أن يستصعب ويستسهل، فإذا طرق القوافي السهلة اعتذر من تقصيره كما قال لعبيد الله بن عبد الله من قصيدة نيفت على سبعين ومائتي بيت:



كل مدح في غيركم فمثاب ما أثبت عبادة الأوثان  
هاكها ، لا أقول ذاك مدلا قول ذي نخوة بها وامتنان  
بين أثنائها مديح نفيس من لبوس الملوك والفرسان  
ذو قواف كأنها حلق الأصد اغ في البيض من خدود الغواني  
راق معنى ورق لفظا فيحكي رائق الخمر في رقيق الصحان  
إن تكن سهلة القواف فيليست في المعاني بسهولة الوجدان  
فابتذلها في يوم لهوك واعلم أنها بعد من ثياب الصيان  
وأبسط العذر في ارتخاص القواف واتباعي سهولة الأوزان  
أنت ألجأتني إلى ما تراه بالذي فيك من فنون المعاني  
أي وزن وأي حـرف روي لهما بالمديح فيك يدان  
ضاق عن مآثراتك الشعر إلا فاعلات مفاعل فاعلان  
ليس مدح يفي بمدحك إلا صلوات المليك في القرآن  
لا ولا حمد كفاء نعماك إلا حمد سبع من الكتاب مثنان

أو كما قال لأبي القاسم التوزي الشطرنجي من قصيدة ناهزت  
مائة وخمسين بيتاً:

ولك العذر مثل قافيتي فيك اتساعاً فإنها كالفضاء  
وتأمل فإنها ألف المد لها مدة بغير انتهاء

وله رأي في إطالة الشعراء وأطالته يقول فيه:

كل امرئ مدح امرءاً لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه  
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه  
غيري فإنني لا أطيل مدائحي إلا لأوفي من مدحت ثناءه  
وأعد ظلماً أن أقل مديحة عمداً وأسخط أن أقل عطاءه

على أنه كان يستريح إلى الإطالة كما يستريح "الجواد الكريم"  
إلى سعة المضمار، لأنها تشبع لذة القدرة على النظم والتمكن من اللغة  
وتنفي ظنة العجمة التي كانوا يعيرونه بها ويتهمون به في شعره من  
أجلها... فلغبطة في نفسه - لا لإرضاء الممدوح وحده - كان يركب  
القوافي الصعبة ويتعمد رياضة الحروف العصية، فيذل له أعصاها  
حتى الثاء والحاء والذال والزاي والطاء والغين والهاء وغيرها من  
الحروف النادرة في الروي الناقصة في شعر أقدر الشعراء، وكانت فيه  
غيرة القول ونخوة المنافسة وهمة الوثوب إلى الغاية. فكان هذا "الجواد

الكريم" يأرن للسباق كلما مرت به خيل السباق! فإذا سمع الكلام الجيد لم يبرح أن يعارضه بكلام من بحره وقافيته ومعناه، ولم ينس أن يجرب قوته إلى جانب كل قوة ويحرك شاعريته إلى جانب كل شاعرية. ففي ديوانه معارضات كثيرة لنايعة وأبي مسلم وأبي نواس والحمدوني ودعل وغيرهم ممن تروى لهم الأبيات المستحسنة والحكم المأثورة: ومثل هذا لا يقصر في المضمار إذا نشطت القريحة وتفتحت أشواط الكلام وحبه هذا للمعارضة وتجربة القدرة هو الذي كان يدعوه إلى النظم في هذا المعنى أو ذاك من المعاني الطريفة التي كانت تروقه في شعر بعض الشعراء. كالماتنق المغربي باللبس الجميل يستملح الكساء على لابسه فيود لو يكون له كساء من طرازه وصنفه ولكنه لا يفكر في سرقة واغتصابه، مثال ذلك قال أبو تمام:

غربته العلى على كثرة الأهـل فأضحى في الأقربين جنيبا

فأعجب هذا المعنى ابن الرومي فقال فيه:

رب أكرومة له لم نخلها قبله في الطباع والتركيب

غربته الخلائق الزهر في الناس وما أوحشته بالتغريب

وقال:

أعاذك أنس المجد من كل وحشة فإنك في هذا الأنام غريب

وقال:

فأنس الله نفساً أنت صاحبها فإنها من معاليها بمغترب

\* \* \*

لولا عجائب لطف الله ما نبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وقال:

وحيد فريد في المجاهد أنس بوحدته مستأثر بالفضائل

الله يكأثره والله يؤنسه فإنه بمعاليه قد اغتربا

ويروي صاحب الأغاني بيتاً آخر نظر إليه ابن الرومي مثل هذه  
النظرة إذ يقول إبراهيم بن العباس:

لفضل بن سهل يد تقاصر عنها الأهل

فباطنها للندي وظاهرها للقبيل

فيقول ابن الرومي:

أصبحت بين خصاصة ومذلة والمرء بينهما يموت هزيلة

فامدد إلي يداً تعود بطنها بذل النوال وظهرها التقبيل

وجاء في الجزء الثالث من زهر الآداب أن الحسين بن الضحاک  
أنشد أبا نواس قوله:

**كأنما نصب كأسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك**

فنعر نكرة منكرة. فقال له الحسين: مالك؟ فقد رعيتي! قال هذا  
المعنى أنا أحق به منك، ولكن ستري لمن يروى. ثم أنشده بعد أيام:

**إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا**

قال صاحب زهر الآداب: "وقال ابن الرومي فكان أحسن منهما:

**أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس**

**فكأنها وكان شاربها قمر يقبل عارض الشمس**

فهذه المأخذ القليلة جداً في شعره تعاب ولكنها أخلق بأن تعد من  
المعارضة والمساوقة ولا تعد من السرقة والغصب. أو هي على كل حال  
ليست من سرقة المعدم الذي لا رزق له إلا رزق غيره. لأنها لو سقطت من  
شعره جملة وسقط معها عشرة أضعافها لما نقصت ثروته ولا مست  
قدرته على التوليد والابتكار أقل مساس. ولو جازت المقاصة في هذا  
الباب لكان ابن الرومي دائماً طالباً ولم يكن مديناً مطلوباً، لأن ما  
أخذه من الشعراء أقل بكثير مما أخذه منه الشعراء.

وهناك المعاني الشائعة والنكات الشعبية العامة التي ليست لأحد ولكنها لكل أحد. أي التي يأخذ منها كل إنسان ويضيف إليها كل إنسان، أو التي هي كالهواء يتساوى منه نصيب من يشاء. فمن هذه المعاني الشائعة حتى في هذا الجيل وحتى بين الأميين الذين لا يقرأون الشعر والأدب أن اللحية تشبه بالمخلاة. وينسب إلى سعيد بن وهب في كتاب الوزراء والكتاب أنه قال في قصة لا محل لذكرها هنا:

قل لمن رام بجهل مدخل الظبي الغريـر  
بعد ما علق في خد يه مخلاة الشعير  
ليته يدخل أن جا ء من الباب الكبير

وفي كنايته عن اللحية "بمخلاة الشعير" على هذه الصيغة ما يفيد أن النكته "معهودة" وأن الإشارة إليها على هذا النحو غمزة مفهومة، فمن الخطل في النقد أن يقال أن ابن الرومي عمد إلى بيت سعيد بن وهب فسرقه حين قال:

علق الله في عذاريك مخلاة ولكنها بغير شعير

فإن سعيد بن وهب وابن الرومي في هذا الاقتباس يستويان، ويزيد ابن الرومي بتصرف جديد في المعنى... وهو أن المخلاة فارغة! وقد يلحق بهذا قول صاحب الصناعتين بعد ما أورد البيهقي الآتين مثلاً للمبالغة في الهجاء:

يقتر عيسى على نفسه وليس بـباق ولا خالد  
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فهو يقول: "والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى وإنما أخذه مما حكاه أبو عثمان.. أن بعضهم قبر إحدى عينيه وقال أن النظر بهما في زمان واحد إسراف" فصاحب الصناعتين أصاب حين نفى ابتكار ابن الرومي للمعنى ولكن من تراه أولى منه بفضل الابتكار؟ ولقد كان ابن الرومي يخطئ لو أنه عدل عن نظم معناه هذا لأن أبا عثمان سبقه بتلك الحكاية، فحسبه منه أنه تصرف فيه وأنه مسح المبالغة عنه، لأنه لم يقل أن "عيسى" يتنفس من منخر واحد ولكنه قال أنه لو استطاع لفعل!

لكن الحذقة التي لا يقاس إليها شيء من هذا هي زعم بعض النقاد أن ابن الرومي سرق البيتين اللذين أنشأهما قبيل وفاته، وهما:  
غلط الطبيب علي غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار

والناس يلحون الطبيب وإنما خطأ الطبيب إصابة المقدار

فأبو عبيد الله بن عبدوس الجهشياري صاحب "كتاب الوزراء والكتاب" يروي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: "إذا نقصت المدة كان الهلاك في العدة" ثم يزعم أن ابن الرومي سرق البيتين من هذه الكلمة.. وصاحب زهر الآداب يزعم أنه أخذهما من

يحيى بن خالد حين "دخل على الرشيد فأخبر أنه مشغول فرجع فبعث إليه الرشيد: "خنتني فاتهمتني. فقال إذا نقصت المدة كان الحثف في الحيلة. والله ما انصرفت إلا تخفيفاً".

ولا نظن أن عصراً مضى من عصور الإسلام خلا من أناس يؤمنون بأن الحذر لا يغني عن القدر، أو يقول عامتهم كما يقول العامة في زماننا "وقت القدر يعمي البصر". فقول ابن الرومي أن "خطأ الطبيب إصابة المقدر" إنما هو عقيدته لا يزعم أحد أنه سرقها إلا إذا زعم المسلم في هذا العصر يسرق عقائده من المسلمين في العصور السابقة! ثم يبقى بعد ذلك أن قوله "خطأ الطبيب إصابة المقدر" هو أبلغ تعبير جديد عن ذلك المعنى القديم. وما كان النقاد ليتورطوا في مثل هذا النقد لولا أن التعسف في إظهار السرقات كان في زمن من الأزمان - أو في زمن الجمع والتأليف - آيتهم على سعة الرواية والعلم بأقدار الشعراء.

وتلاحظ في صناعة ابن الرومي لأزمة الأفعال المزيدة والمشتقات التي يستخدم منها من جميع الصيغ والأوزان: فأسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان وصيغ التفضيل والمبالغة والصفات المشبهة والمصادر تكثر في شعره كثرة لم نلاحظها في شعر غيره، ونحسب أن الإفراط في استخدام المشتقات والأفعال المزيدة هو الوسيلة التي لا بد منها للشاعر العربي الذي يريد أن يتناول المعنى من جميع نواحيه ويتدرج به في مختلف درجاته. إذ ليس في اللغة العربية ظروف كالظروف التي يشتهقها الإفرنج من معظم الصفات والأسماء بإضافة صغيرة في أول الكلمة أو في آخرها فتدل على المعنى المقصود وتدل كذلك على



اختلاف الدرجة والقوة في أداء ذلك المعنى. فإذا أراد الشاعر العربي أن يلتفت إلى هذه الفروق فلا بد له من الاستعانة على ذلك بالمشتقات والأفعال المزيدة كما كان يفعل ابن الرومي. إلا أنه كان يسرف في جمعها معاً حتى تنبو بها الأذن في بعض الأبيات. كقوله:

صاغة صواغة صيغا بدعا لم تلق في خالد

أو قوله:

أبصر بيضاء في القذال فلا نفر كنفر رايته نفره

أو قوله:

يترك بالحول حول حولها وهو سواء وموق مائتها

أو قوله:

قلت إن تغلبوا بغالب مغلو ب فحسبي بغالب الغلاب

وهي ركابة منه كان ينساها في استطراده وربما كان يهونها عليه وسواسه. لأن طبيعة الموسوس لا تنفر من التكرار كما تنفر منه سائر الطبائع. على أنه كان يجمع بعض المشتقات والحروف المتشابهة المخارج فتساع - وقد تستحسن - في أصعب القوافي كما قال في الجيمية:

سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج

ولا برح القاع الذي أنت ربه يرف عليه الأحقوان المفلج

فإن للراء والحاء "راح" في القلب تزداد بالتكرار وتمهد لما بعدها  
من الظل الممدود والتضعيف المقبول في هذه القافية العصية.

أو كما قال من قافية الخاء:

يا صارخاً في جموع ليس تصرخه للظالمين غدا في النار مصطرخ

أو من قافية الفاء:

ومنعم كالماء يشفي ذا الصدى كشفائه ويشف مثل شفيفه

ويوقعه الاستطراد - ولك أن تقول الاستغراق في المعنى - تارة في  
إهمال اللفظ وتارة أخرى في الأساليب النثرية التي لا يفسح غيرها  
للإسهاب والإطناب والتفصيل والتفريع والمراجعة والاستدراك. فينظم  
في هذه الحالة وكأنه ينثر، إلا أنه لا يخلو من الشاعرية ولا يسف إلى  
طبقة "المتن" المنظوم و"الألفيات" التي ليس فيها من الشعر إلا أنها  
موزونة مقفاة.

ومع هذا تستطيع أن تقول أنه لم يجعل اللفظ شغلاً شاغلاً في  
صناعته ولم يحفل به إلا لأداء المعنى الذي يريده. فيخيل إليك وأنت  
تطرد في قراءته أنه يرتجل القصائد ارتجالاً ويفيض بها فيضاً لمطاوعة  
لفظه وغزارة مدده. فهو يجيد في تركيب أبياته وأحكام قوافيه

ولكنه لا ينتزع الإجابة بالجهد والتريص، وما عليه إلا أن يعني ما يقول فيقول ما يعني بغير إخلال ولا التواء، وما عليه إلا أن يرسم فيجيء البناء على ما رسم وتقوم الأركان على ما دعم.

ومن الشعراء من تلمح الكلمة في قصيده وكأنها تمن على الشاعر بفضل وتستطيل بدالة، لأنها أطاعته ولبت رجاءه ورضيت بمقامها في حظيرته. فإذا بحثت عن أمثال هذه المفردات والتراكيب في قصائد ابن الرومي فلست واجدها هناك، لأن كلماته تقبل إلى مواضعها وكأنها تعلم أن الفضل في مقامها للشاعر لا لها وأن الدالة في اختيارها له لا عليه، ومن ثم لم يشغل باللفظ ولم يبد على معناه أثر الجهد فيه، وبهذا سلم من لعب الجنس اللفظي والمحسنات المموهة مع أنه نشأ في العصر الذي نشأت فيه هذه المحسنات، وعجيب هذا منه وهو المتطير الذي كان يلقي باله إلى أقل تجانس في الكلمات وأضعف تشابه في الحروف ليستخرج منه النذر والبشائر ويعلق عليه القنوط والأمل، ولكنه عجيب في الظاهر دون الحقيقة. لأنه إنما كان يبالي بالكلمات حين كان يأخذها مأخذ المتطيرين، وهي حينئذ لها معنى عنده ومن ورائها نبأ وفيها شعور. فليست هي خواء ولا تمويها ولا بهرجاً زائفاً كبهرج العابثين والمزوقين، إنما كان يجانس لمعنى يراه هو ويراه من يتطير مثله ولا يجانس لتزويق فارغ ولهو سخي، فإذا لم يكن متطيراً فلا جناس ولا اكتراث باللفظ إلا لما فيه من معنى ظاهر مستقيم وما له من فصاحة ونضارة، أو يتفق له جناس اللفظ كما كان يتفق للشاعر الجاهلي والشاعر المخضرم قبل عهد التتميق والصناعة، فلا غرابة في أن تجد له أو لشاعر مخضرم مثل هذا البيت:

فيسبيك بالسحر الذي في جفونه ويصبيك بالسحر الذي هو نافثه

أو مثل هذا البيت:

نصيب إذا حكمت وأن طلبنا لديك العرف كنت حيا تصوب

أو مثل هذا البيت:

ليس ينفك طيرها في اصطحاب تحت أظلال أيكها واصطخاب

وهكذا كان في كل تجنيسه الذي لا تعسف فيه وليس هو  
بالكثير البارز في ديوانه الكبير. فإذا جنس في غير ذلك فهو عابث  
متعمد للعبث وليس بملفق محسنات ولا بطالب تزويق كما قال:

لو تلففت في كساء الكسائي وتلبست فـروة الفراء

وتخللت بالخليل وأضحى سيبويه لديك رهن سباء

وتكونت من سواد أبي الأسو د شخصاً يكنى أبا السوداء

لأبى الله أن يعدك أهل العـم إلا من جملة الأغبياء

فالذي يقرأه هنا لا يخطر له بنة أنه يزوق ويزخرف ولا يشك  
لحظة في أنه يعبث ويهزل، وأنه لا يحاول أن يبيع الناس بهرجاً بـثمن  
ذهب وعرضا بـثمن جـوهر.

أما ما يستشهد به البديعيون من كلامه كقوله في غير  
الجناس:

آراؤكم ووجودكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم  
فيها معالم للهدى ومصباح تجلو الدجى والأخريات رجوم

فهو أقرب إلى التقسيم الفلسفي منه إلى محسنات اللفظ  
وترصيعاته.

وغني عن القول أننا لم نقصد بما تقدم أن ابن الرومي كان على  
سداجة الجاهليين والمخضرمين في صوغ الشعر وفهم فنون البلاغة. فإن  
هؤلاء كانوا يأتون بالقول البليغ ولا يعرفون علته، وكانوا يطربون  
للشعر ولا يتوخون مذاهب نقده، وليس في وسع شاعر عباسي أن  
يكون كذلك بعد ما أولع القوم بالبحث في جميع العلل والأسباب  
واصطلحوا في البلاغة على الحدود والأسماء وخرجوا من حالة "العفو"  
إلى حالة "الوعي" ومن سهو الجنة التي كانوا غافلين فيها عن النعيم  
والعذاب والخجل والعيب إلى يقظة الدنيا التي يؤخذون فيها  
بالتكاليف ويدركون فيها المحاسن والعيوب، وابن الرومي أولى ألا  
يكون على تلك السداجة الجاهلية أو المخضرمة وألا يسهو عن  
محاسن كلامه وعيوبه وهو الذي لم يسه قط عن شيء فيه ولم يكن  
له من هم إلا أن يحصى خطرات ذهنه وخلجات فؤاده، فهو شاعر ناقد  
وبليغ له مذهب في البلاغة ورأى في المعاني وحجة في الاختيار. ونوادره  
في ذلك قليلة ولكن النادرة التي نقلها بعد كافية للإبانة عن وجود

هذه الملكة فيه وعملها في نقد كلامه ونقد كلام غيره. قيل إنه سمع هذه الأبيات:

أيها الظبي المليح القـد      مجدول مهـفـف  
أنا من ميالك في مشـ      يك مرعوب مخوف  
لا تميلن فإنـي      خائف أن تتـصف

وهي لابن أبي فنن. فقال في البيت الآخر: "إنما أراد منه أنه يميل من لينه ونعومة أعضائه فأسرف حتى أخطأ ، وذلك أنه جعل اللين المفرط يتقصف. وإنما كان ينبغي أن يقول لو عقد لانعقد من لينه فضلاً عن أن يميل وهو سليم من التقصف" ثم أسرع إلى معارضة القائل بهذين البيتين:

أيها القائل إنـي      خائف أن تتـصف  
ليس هذا الوصف إلا      وصف مصلوب مجفف

فملكة الابتكار في ابن الرومي كانت مصحوبة بملكة الانتقاد ، وفصاحته كانت فصاحة الذي يحاسب نفسه ويحمل تكليفه لا فصاحة غير المكلفين في جنة السهو والتوفيق!

كذلك لا يفهم من سهولة شعره وتدقيقه وأخذ بعضه بأطراف بعض أنه كان قليل التهذيب له والرجعة إليه. فربما فرغ من القصيدة

وأفضى بها إلى ممدوحه ثم عاد إلى تنقيحها والزيادة عليها وردها مرة أخرى كما فعل في المهرجانية التي تتبعها وأطالها وكتب في ذلك يعتذر إلى عبيد الله بن عبد الله:

قصيدة كرها متقفها عليك إذ تقفت على مهل  
أعجلها الوقت عن رياضتها فأقبلت ريشا على عجل  
لم أحتشم كرها عليك ولا سدى منها مواضع الخلل  
لأنني عالم بأنك لا تعتد بفيما أصلحت من عمل  
وليس مثلي ينام عن خلل في مدح ممدوحه ولا زلل

على أنه - لطول رياضة الكلام الموزون - قد أسلست له طريقة في النظم يقسر بها المعنى على الظهور ولو اضطر إلى الحشو واللف والاعتراض فلا تشعر إلا وقد استدار له البيت على أحسن تركيب وأصبح الحشو في يديه حسناً يزيد المعنى ولا يعيبه. فإذا أراد أن يقول "لا تكذب الأخبار بالهوى" ولم يساعده الوزن قال:

لا تكن بالهوى تكذب بالأخبار رحتى تهين ما لا يهان

فأكسب المعنى قوة لم تكن له في عبارته البسيطة. لأنه حين صاغ البيت هذه الصياغة كأنما ينهى عن "خلق" التكذيب لا عن "فعل" التكذيب مرة واحدة أو مرات. فمعنى "لا تكن مكذباً الأخبار

بالهوى" غير معنى "لا تكذب الأخبار بالهوى". لأن العبارة الأولى تفيد زيادة في النفس لا تدخل في مدلول العبارة الثانية. تفيد النهي عن "طبيعة" التكذيب أو عن أن "يكون" الإنسان مكذباً، ولا تقتصر على استنكار التكذيب في هذه الحادثة أو في تلك.

وإذا أراد أن يقول أن اليوم أفضل الطير وحال الوزن دون هذا المعنى البسيط قال:

واعتبر أن أفضل الطير، في الطير، وفينا، كروسات اليوم..

فبلغ في إظهار فشل البومة ما لا تبلغه العبارة الأولى. لأنه بين فشلها بالنظر إلى مقاييس الطير وبالنظر إلى مقاييس بنى الإنسان، فهي فاشلة كما يراها نظائرها في عالم الطيور وفاشلة كما نراها نحن في عالمنا الإنساني، وذلك معنى لا تجده في قول من يقول: أن البومة أفضل الطوائر، وتلك كانت طريقته في الحشو "المبارك" المقبول، وفي تدوير النظم حتى يستدير له على أحسن تقويم..

\* \* \*

وقد كان ابن الرومي كأبناء عصره يقدم الغزل بين يدي مدحه ووصفه جرياً على سنة لم يكن في ثقافة عصره ما يدعو إلى استغرابها والنظر في تقيحها، إلا أنه يعمل هذه السنة ويتصرف في تقديم الهجاء بالغزل فلا يقصره على الوصف والمديح، فيخرج بذلك بعض الخروج من حكم التقاليد والمحاكاة العمياء ويختار لصناعته بعض الاختيار....



ألم تر أنني قبل الأهاجي أقدم في أوائلها النسيباً  
لتخرق في المسامع ثم يتلو هجائي محرقاً يكوي القلوبا

وقد يتصرف غير هذا التصرف كما قال:

وأشغل قريضك بالنسيب وبالفكاهة والمزاح

كذلك كان يحكي أبناء عصره في تصعيب اللفظ وتعمد  
الغريب حين كان ينظم في الطرد ووصف الأسد وما إليه. لأن الشعراء  
العباسيين جعلوا الطرد خاصة معرضاً للبداءة الشعرية والفحولة  
العربية. فكانوا في ذلك على حد ما يقال عرباً أكثر من العرب  
وجاهليين أكثر من الجاهليين..

أما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع  
على شواهد العربية ولا سيما في القرآن. ومن هنا لم يذكر كلمة  
"أشياء" إلا ممنوعة من الصرف، وهي مصروفة في قول القياسيين من  
النحاة لأنها جمع شيء. فهي أفعال جمع فعل وليست فعلاء مؤنث أفعال  
التي تمنع من الصرف، فمن المواضع التي وردت فيها الكلمة قوله:  
"حرمت بالمشيب أشياء حلت" وقوله: "قبلاً لأشياء يأتي البحري بها"  
وقوله:

فيك أشياء لو وجدن قديماً نظمتها الملوكة في التيجان

وقوله:

فيك أشياء من يواليك مسرور بها والعدو منها مغيظ

وقوله:

واليك الشكاة منها ومن أشياء تبتزذ الحجا معقوله

وقوله:

يا حور ما للحبيب يفعل بي أشياء لا يستحلها الحرج

وقوله:

وفيك أشياء صالحات حماكها الله والرسول

وإنما تابع المفسرين في هذا ولم يتابع القياسيين من النحاة لأن كلمة أشياء وردت في سورة المائدة ممنوعة من الصرف، إذ جاء في الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ بفتح الهمزة في أشياء، وتعليل المفسرين لذلك "أن أشياء هنا اسم جمع كطرفاء غير أنه قلبت لامه فجعلت لفعاء، وقيل أفعلاء حذف لامه - جمع لشيء كهين أو شيء كصديق فخفف" وهذه المخالفة للنحاة القياسيين هي كما ترى أدل على العلم منها على الخطأ، فلم يكن ابن الرومي ممن يسهل وقوعهم في الخطأ النحوي وإلا لظهر منه ذلك

في مواضع شتى مع إطالته وإكثاره وجرأته على تذليل النحو لمراده.  
ونقول جرأته لأننا لا نعد من خطأ الجهل قوله:

**دعني وأيا أبى على الأعور المعور الخبيث**

إذ لا يخفى على المبتدئ أن "أيا" ضمير فصل يتصل بالضمائر الموصولة ولا يتصل في الكلام الفصيح بالأسماء. فابن الرومي إذا وصل الضمير المفصول بالاسم لا يفعل ذلك جهلاً بالقاعدة التي يعلمها المبتدئون وإنما يفعله وهو مجترئ عليه عالم بمكان هذه الكلمة من الخطأ والصواب، وعلى ذكر التجوز في صرف الممنوع ومنع المصروف نقول أن ابن الرومي كان من أقل الشعراء تجوزاً في "عروضه" وأكثرهم حرصاً على أوزانه. ولا بأس بأن نذكر له هنا بيتين قالهما في مرض وفاته ورواهما عنه أبو عثمان الناجم وهما:

**أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك للعشيرة دون لومك**

**تمتع من أخيك، فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك**

فقد ذكرهما المعري في رسالة الغفران فعاب عليهما أنهما مقيدان وقال "وما علمت أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيداً إلا في بيت واحد يتداوله رواة اللغة، والبيت:

**كأن القوم عشوا لحم ضأن فهم تعجون قد مالت طلاهم**

وهذا البيت مؤسس، والذي قاله ابن الرومي من غير تأسيس".

والحق أنه لا خلل في وزن البيتين من حيث العروض، وإنما كان المعري في نقده هذا أشبه بالفقهاء منه بالأدباء، ولو اختل البيتان أشد خلل لما قيست بهما صناعة ابن الرومي في جميع شعره. لأن المرء لا يقاس بنظم مرتجل يلقي به إلقاء وهو يوجد بنفسه.

\* \* \*

وقد نلاحظ على ابن الرومي تعبيرات التي تسمى في عصرنا هذا بالتعبيرات الإفرنجية في مثل البيت:

**كما لو هجاكم شاعر حل قتله كذاك فأوفوا مادحاً دية القتل**

وقد يلاحظ ذلك في إكثاره الهتفات مثل قوله "ضلة! ضلة" و"سوأة سوأة" و"في سبيل الشيطان منك نصيبي" إلى أشباه ذلك من اللفظات الكثيرة في تعبيرات اللغات الأوروبية. فيرد على الخاطر أنه كان - لهذا - يعرف الإغريقية ويتأثر بها في أسلوبه، أو يرد على الخاطر أن هذه التعبيرات من أثر العجمة في سليقته والعادة في لسانه. ولكنها ملاحظة لا تستلزم هذه النتيجة ولا نستطيع أن نعززها بملاحظات أخرى من قبيلها. ومن السهل جداً أن نقول أن أمثال تلك التعبيرات القليلة سرت إلى ابن الرومي من دراسة الكتب المترجمة ومعالجة التدليلات المنطقية في كلامه ومساجلاته، وأن الهتفات المألوفة فيمن كان له مزاج كمزاجه المتوفز عربياً كان أو أعجمياً بلا خلاف. ذلك أسهل من القول باللغة الأعجمية التي استضعفناه فيما تقدم من الكلام على تعليم الرجل ومعلوماته.

\* \* \*

### في أي باب من أبواب الشعر كان ابن الرومي يجيد خاصة؟

سؤال لا بد أن يخطر لنا في معرض الكلام على صناعته وأسلوبه، وأرى أن الكثيرين سيقولون - أو قد قالوا - أنه هو باب الهجاء لأنه اشتهر به وشاع أنه مات بسببه، فلنعلم إذن أنهم مخطئون في هذا الحكم لأن ابن الرومي كان يجيد في أبواب الشعر كلها على حد سواء ويعطي قصائده جميعاً بمقدار واحد من عنايته وإتقانه. وخذ مثلاً أقواله في الحكمة وهي أقل ما اشتهر به تجد له مئات من الأبيات التي تسير مسير الأمثال وتخرج من عداد تلك الأفكار المطروقة التي يتفهيق بها من يحبون الاشتهار بالبيت الحكيم والمثل السائر، ولو أننا رجعنا إلى أبياته التي مرت بنا في هذا الكتاب لما ألفينا بينها تفاوتاً في الطبقة بين غرض وغرض وباب وباب، وإنما اشتهر بالهجاء لأن الهجاء أشهر وأسير لأنه يجيد فيه أكثر من إجادته في المديح أو في الغزل أو في الصفات، فلو أن الألسن تتسائر بالوصف البارع كما تتسائر بالهجاء اللاذع لغطى وصف ابن الرومي على هجائه لكثرة ما قال وأجاد في الوصف حتى خلال قصائد الهجاء.

وأغرب من هذا الاستواء في طبقة القول أنك تقرّ الأبيات التي مرت بك في هذا الكتاب فتحسب أنها نظمت كلها في عمر واحد ولا تدري أيها شعر الشباب وأيها شعر الكهولة والشيخوخة إلا ما يندب فيه شبابه ويتبرم بسنه، فانظر مثلاً إلى الأبيات التالية:

قل لأيوب والكلام سجال والجوابات ذات يوم تدال  
اسكنوا بعدها، فلا تذكروا الشؤم، حياء. فأنتم الأجال  
أنا شؤمي فيما تقولون عزا ل، ولكن شؤمكم قتال  
بالذي أدرك المؤيد منكم وابن سعد أن تضرب الأمثال  
زرتموه والصالحات عليه مقبلات فأدبر الإقبال  
حين درت له أفاويق دنيا ه دلفتم له فكان الفصل  
إن شؤما حلت به عقدة المله ك لشؤم تزول منه الجبال  
ليس بدعا من الحوادث أن يعز ل وال وتخفق الأممال  
إنما البدع أن تزول أمور لم يكن يهتدي إليها الزوال  
كالذي حاق بالمؤيد منكم بعد ما نوطت به الأممال  
ذلك الشؤم يا بني أم شيخ يمكن القائلين فيه المقال  
ذاك شؤم فيه سمام الأفاعي ناجز النقذ، ليس فيه مطال  
ذاك شؤم كالسيل عفى على الف طر جلال كما يكون الجلال  
ذاك شؤم لو جاور البحر يومين لأمسى وليس فيه بلال

فهذه قطعة نظمها في نحو الثلاثين من عمره، لأنها نظمت في  
نكبة "المؤيد". فقابل بينها وبين القطعة التالية التي نظمها وهو في  
الخامسة والخمسين:

كبرت وفي خمس وخمسين مكبر

وشبت، فألحاظ المها عنك نقر

إذا ما رأتك البيض صدت وربما

غدوت، وطرف البيض نحوك أصور

وما ظلمتك الغانيات بصددها

وإن كان من أحكامها ما يجور

أعر طرفك المرأة وانظر فإن نبا

بعينيك عنك الشيب فالبيض أعذر

إذا شئت عين الفتى وجه نفسه

فمين سواء بالشناءة أجدر

أو قابل بينهما وبين هذه القطعة التي نظمها قبيل وفاته على  
لسان العزير:

أيادي بني الجراح عندي كبيرة وأكبر منها أنها لا تكدر  
هم القوم ينسون الأيادي منهم عليك، ولكن المواعيد تذكر  
وإن كنت قد أهملت بعد رعاية وأغفلت حتى قيل أشعث أغبر  
وقلدت شغلا ضره لي معجل سريع، وأما نفعه فمؤخر  
أروح وأغدو فيه أنصب عامل وأصفره كفا، فكم أتصبر؟!  
أيعطش أمثالي وواديك فائض ويجذب أمثالي وواديك أخضر  
أبى ذاك أن الطول منك سجية وأنك بيت الحمد بالطول تعمير  
وأنك لم تؤثر على الحق لذة بحكم هوى، فالحق عندك مؤثر  
وما زلت تختار الأمور بحكمة فأفضلها الأمر الذي تتخير

فانظر حين تقرن هذه الأبيات بعضها ببعض هل ترى بينها من  
تفاوت في الصناعة أو اختلاف في روح الشعر ونسج الكلام وطريقة  
التركيب وتناول المفردات؟ فهي وغيرها من قصائده التي نظمت من  
العشرين إلى الستين طبقة واحدة من هذه الناحية لا تستطيع أن تتحقق  
فيها مزية سن على سن ولا فترة على فترة. وتعليل ذلك صعب في  
الشعراء المطبوعين غير ابن الرومي، أما هو فلا صعوبة في تعليل هذا



الاستواء في تركيبه والتشابه في روحه ونسجه، لأنه ينسج من غزل واحد وبضاعة واحدة، وهي الشعور الجديد أو شعور الطفولة الفنية التي لازمتها في حياته من المبدأ إلى النهاية. فلم يتغير فيه إلا القليل بعد ما درس نصيبه من اللغة والعلم واستوفى مادته من الفن والصياغة، وكأنه الشجرة التي نضجت مبكرة وبلغت تمامها ورسخت في تربتها، فثمرتها اليوم كثمرتها بعد سنوات عشر أو بعد عشرين وثلاثين، ولا عيب في ذلك إلا أن تكون الثمرة بسراً لا خير فيه. أما إذا كانت ثمرة كأطيب الثمر في النضرة والحلاوة فالتبكير إذن أصلح من التأخير والبقاء على طبقة واحدة أحب وأكمل من التغيير.

فالكلمة الأولى والأخيرة في هذا العبقرى النادر أنه كان شاعراً في جميع حياته حياً في جميع شعره، وأن الشعر كان لأناس غيره كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له جسماً لا تكون بغيره حياة...



## خاتمة

بالكلام عن صناعة ابن الرومي تمت الصورة التي استخرجناها له من مجموعة شعره وامتفرق أخباره. وحسبنا أن نتمم هذه الصورة لنكون قد بلغنا الغاية من وضع هذا الكتاب وأقمنا - في عرض الطريق - أوضح الأدلة المحسوسة على وحدة المقاييس بين تعبيرات الشعر وتعبيرات الحياة. ونحسب أننا قد أقمنا هذا الدليل في وقت الحاجة إليه عند قراء الأدب الغربي بيننا، قبل قراء الأدب العربي وحده بفرعيه من قديم وحديث. لأننا نعيش في عصر شاع فيه بين كثير من الأوربيين أن الشعر شيء بمعزل عن خوالج الحياة، وأننا لا ينبغي أن نتظر منه مطلباً آخر غير الرونق والطلاوة، وما إلى ذلك من ظواهر قسامة لا تتجاوز البشرة إلى ما وراءها من قلوب ونفوس وضمائر..

وغير عجيب أن يشيع هذا الرأي بين الأوربيين، في العصر الذي نحن فيه وهو عصر السامة و"الفردية" وآداب الصالونات والمجالس. إذ ماذا تنتظر من شعر يقرأه إنسان قد سئم المثل العليا وكذب بالأغراض

الرفيعة وفترت فيه قوة العقيدة؟ وماذا تنتظر من شعر يقرأه إنسان تفرض عليه "الفردية" أن يظل فرداً معزولاً بين أفراد معزولين؟ وماذا تنتظر من شعر يقرأه إنسان أنيق لا يريد أن يسمع من جلسه في الصالون أو النادي أو القهوة إلا شهشقة لسان وأحاديث فراغ؟ أنك لا تنتظر من هذا الإنسان أن يتطلب في الشعر ما يتطلبه الإنسان الذي تنشط نفسه للعقيدة ولو نشاط المكافحة والثوران أو يتطلبه الإنسان الذي تتصل بينه وبين الأحياء من حوله وشائج دم لا تزال تنقل منه إليهم كما تنقل منهم إليه ، أو يتطلبه الإنسان الذي يحس أن الكون مجال حياة وأسرار يولد فيه مخلوقاً حياً عريق الأصول في آباد ليس لها نهاية ، لا عضواً في "صالون" أو جلساً في قهوة أو سميراً في سهرات مجون... كلاً! إنك لا تنتظر من إنسان السامة والفردية والصالون أن يقرأ شعراً كالذي يقرأه إنسان النشاط القلبي والوشائج الأدمية والكون الأبدي المستهول الوضوح والخفاء على السواء ، فغير عجيب كما قلنا أن يشيع رأي أصحاب الرونق والطلاء في هذا العصر ، وما بقي فيه للإنسان من مطلب عزيز متفق عليه غير مطلب الراحة الملساء والهدوء الناعم من مزعجات الجهاد.

فإذا كنا ، مع استخراج صورة ابن الرومي من شعره قد وفقنا لإظهار الوحدة العامة بين الشعر والحياة أو بين الفن والحياة كلها - فذلك حسبنا من مقصد جدير بالالتفات خليق أن يتقرر بيننا قبل أن يشيع في أذواقنا رأي السأم والأثرة وأناقة المتبطلين.

لكنا نرجو أن نكون قد وفقنا لإرضاء التاريخ إلى جانب إرضاء التصوير وإرضاء الوحدة بين الشعر والحياة ، وحسبنا في هذا أيضاً أننا

سندع ترجمة ابن الرومي هنا خيراً مما تسلمناها من شتات الماضي  
صحة في الأخبار ورجحاناً في الاحتمالات، ومن هذه الأخبار أخبار  
تتعلق بمولده ووفاته، وأخبار أخرى تتعلق بأخلاقه ومعيشته، ومنها  
أخبار تلقاها الناقلون بالتسليم وجرت في التراجم مجرى المقررات ولا  
مصدر لها إلا خطأ عارض في طبع بعض التواريخ. كالخبر الذي ينقل  
عن ابن خلكان ويقال فيه أن المتنبي روى عن ابن الرومي شعره وبينهما  
ما بينهما من بعدي الزمان والمكان... فيأخذ الناقلون ويقبله منهم من  
يقبل ويحار فيه من يحار، وإنما هو اسم "المسيبي" حرفه الطابعون إلى  
اسم "المتنبي" فسرى الخطأ سريانه في الكتب الحديثة بلا شذوذ...  
وغير ذلك كثير ليس يعني في صدد هذه الخاتمة أن نحصيه وما  
شاكله ونحا نحوه في جميع المصادر والمنقولات، لأننا نقصد إلى  
تصحيح ما لاح لنا خطأه ولا نقصد إلى إحصائه على المخطئين.

\* \* \*

وبعد فمن تمام التعريف بابن الرومي أن نختم كتابنا بمختارات له لم نعتمد فيها الدلالة التاريخية التي توخيناها في شواهد الفصول السابقة ، ولا ريب أن هذه الشواهد معرض حسن تبدو فيه شاعرية المترجم في نواحي كثيرة منوعة. ولكننا نعتقد أن المختارات التي تقرأ لذاتها لا لموقعها من الترجمة أخرى أن تتمم المعرفة بشاعريته من جميع نواحيها. وها هي أولاء تلك المختارات معروضة فيما يلي لتدل على معدن شعره لا على أحسن ما فيه.

## الطبيعة والحياة





## الربيع شباب الطبيعة

ضحك الربيع إلى بكى الـديـم  
وغدا يسوى النبت بالقمم  
ما بين أخضر لابس كما  
خضراً، وأزهر غير ذي كم  
متلاحق الأطراف متسق  
فكأنه قد طم بالـجـلم<sup>(1)</sup>  
متبلج الضحوات مشرقها  
متأرجح الأسجار والعتم

---

(1)

تجد الوحوش به كفايتها  
والطير فيه عتيدة الطعام  
فظباؤه تضحى بمن تطح  
وحمامه تضحى بمختصم  
والرؤس في قطع الزبرجد والـ  
ياقوت تحت لآلى تؤم  
طلل يرققه على ورق  
فكأنه در على لمم  
حشد الربيع مع الربيع له  
فغدا يهزز ثابت الجمم<sup>(1)</sup>  
والدولة الزهراء والزمن المز  
هار حسبك شافبي قرم

---

(1)

إن الربيع كالشباب وإن الـ  
صيف يكسعه لكاهرم  
أشقائق النعمان بين ربي  
نعمان! أنت محاسن النعم  
غدت الشقائق وهي واصفة  
آلاء ذي الجبروت والعظم  
تurf لأبصار كحلن بها  
ليرين كيف عجائب الحكم  
شعل تزيدك في النهار سنى  
وتضى في محلولك الظلم  
أعجب بها شعلاً على فحم  
لم تشتعل في ذلك الفحم

وكأنما لمع السواد إلى

ما أحمر منها في ضحي الرهم<sup>(1)</sup>

حديق العواشق وسطت مقالا

نهلت وعلت من دموع دم

هاتيك أو خيلان غالية

أضحت بها الوجنات في ذمم

يا للشقائق أنها قسم

تزهي بها الأبخار في القسم

ما كان يهدى مثلها تحفا

ألا تطول باري النسم

---

(1)

## السحاب

متهلل زجل، تحن رواعد  
في حجزتيه، وتستطير بروق  
سدت أوائله سبيل أواخر  
لم يدر سائقهن كيف يسوق  
فسجا، وأسعد حالبيه بدرة  
منه — سواعد ثرة وعروق  
وتنفست فيه الصبا فتبجست  
منه الكلى، فأديمه معقوق  
حتى إذا قضيت لقيعان الملا  
عنه حقوق بعدهن حقوق

طفقت رواياها تجر مزادها  
فوق الريى، ومزادها<sup>(1)</sup> مشقوق  
وتضاحك الروض الكئيب لصبوه  
حتى تفتق نوره المرتوق  
وتسمت نفحاته فكأنه  
مسك تضيع، فأره مفتوق  
وتفرد المكاء فيه كأنه  
طرب تعلل بالفناء مشوق

---

(1)

## روضه

وروضه عنذراء غير عانسه  
جادث لها كل سماء راجسه  
رائحه بالغيث أو مغالسه  
فأصبحت من كل وشى لابسه  
خضراء ما فيها خلاة يابسه  
ضاحكة النوار غير عابسه  
كأنها معشوقه مؤانسه  
فيها شمس للبهار وأرسه  
كأنها جماجم الشامسه  
تروك النوره منها الناكسه  
بعين يقظى وبجيد ناعسه

لؤلؤة الطلل عليها فارسه  
وخرم<sup>(1)</sup> في صيغة الطيالسه  
يحكي الطواويس غدت مطاوسه  
كأنما تلك الفروع المائسه  
تغمسا في اللازورد غامسه  
وصفوة النعمان والقوابسه  
من ناصع الحمرة ربا قالسه<sup>(2)</sup>  
تكاد تحت الظلمات الدامسه  
تهوي إليها كل كف قابسه

---

(1)

(2)



## الفرجس

يا حبذا الفرّجس ربحانة  
لأنف مغبوق ومصبوح  
كأنه من طيب أرواحه  
ركب من روح ومن روح  
يا حسنه في العين يا حسنه!  
من لامح للشرب ملموح  
كأنما الطل على نوره  
ماء عيون غير مسفوح

## الهاجرة في الصحراء

وهاجرة بيضاء يعدي بياضها  
سواداً كأن الوجه منه محمم  
أظل إذا كافحتها وكأني  
بوهاجها دون اللثام ملثم  
بديمومة لا ظل في صحصحانها  
ولا ماء لكن قورها<sup>(1)</sup> الدهر عوم  
ترى الآل فيها يلطم الآل مانجا  
وبارحها المسموم للوجه أطم

---

(1)

## خابط الليل في الفيافي

وليل - غشا ليل من الدجى فوقه

فليس لنجم في غواشيه منجم

عفا جلبه آي الهدى من سمائه

وأعلامه من أرضه فهي طسم

لبست دجاه الجون ثم هتكته

بوجناء ينميها غرير وشدم<sup>(1)</sup>

عذافرة تنقض من كل زجرة

كما انقض مردى<sup>(2)</sup> المنجنيق الململم

---

(1)

(2)

يخوض عليها لجة الهول راكب  
هو السيف إلا أنه لا يثلم  
نجيب من الفتيان فوق نجيبة  
من العيس، في يهماء، والليل أيهم  
فريدين، يمضيها وتمضيه في الدجى  
كسمرأ يمضيها وتمضيه لهذم  
يربها الهدى حدساً، وتنجو برجله،  
ودون الهدى سد من الليل مبهم  
على ظهر مرت<sup>(1)</sup> ليس فيه معرج  
ولكن مخب للركاب ومسعم<sup>(2)</sup>  
ينوح به بوم وتعزف جنة  
فيعوى لها سيد ويصبح سمس<sup>(3)</sup>

---

(1)

(2)

(3)

يخال بها من رز هذا وهذه

إذا اختلف الصوتان عرس وماتم

تعسفته أما لخفض أناله

وإما سأم الخفض، والخفض يسأم

## الأسفار

إذ اقتنيت الأسفار ما كره الفني  
إلي، وأغراني برفض المطالب  
فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد  
وإن كنت في الإثراء أرغب راغب  
حريصاً جباناً. أشتهي ثم أنتهي  
بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب  
ومن راح ذا حرص وجبن فإنه  
فقير أتاه الفقر من كل جانب  
تنازعتني رغب ورهب كلاهما  
قوي؛ وأعياني اطلاع المغايب

فقدمت رجلاً رغبة في رغبة،  
وأخرت رجلاً رهبة للمعاطب  
أخاف على نفسي وأرجو مفازها،  
وأستار غيب الله دون العواقب  
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي!  
ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب

## سفر البر

ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة  
رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب  
وصبري على الإقتار أيسر محملا  
علي من التغير بعد التجارب  
لقيت من البر التباريح بعد ما  
لقيت من البحر ابيضاض الذوائب  
سقيت - على ري به ألف مطرة  
شفقت لبغضيتها بحب المجادب  
ولم أسقها ، بل ساقها لمكيدتي  
تحامق دهر جد بي كالملاعب



إلى الله أشكو سخف دهري فإنه  
يُعابثني منذ كنت، غير مطايب  
أبى أن يغيث الأرض، حتى إذا ارتمت  
برحلي أتاهم بالغيوث السواكب  
سقى الأرض من أجلي فأضحت مزلة  
تمايل صاحبها تمايل شارب  
لتعويق سيرى أود حوض مطيبي،  
وإخصاب مزور عن المجد ناكب  
فملت إلى خان مرث بناؤه  
مميل غريق الثوب لهفان لاغب  
فلم ألق فيه مستراحاً لمتعب  
ولا نزلاً، أيان ذاك لساغب؟  
فما زلت في خوف وجوع ووحشة  
وفي سهر يستغرق الليل واصب

يؤرقني سقف كأنني تحته  
من الوكف تحت المدججات الهواضب  
تراه إذا ما الطين أثقل متنه  
تصر نواحيه صرير الجنادب  
وكم خان سفر خان فانقض فوقهم  
ما انقض صقر الدجن فوق الأرناب  
ولم أنس ما لاقيت أيام صحوه  
من الصر فيه والثلوج الأشاهب  
وما زال ضاحي البر يضرب أهله  
بسوطي عذاب جامد بعد ذائب  
فإن فاته قطر وثلج فإنه  
رهين بساف تارة ويحاصب  
فذاك بلاء البر عندي شاتياً،  
وكم لي من صيف به ذي مثالب

ألا رب نثار بالقضاء اصطليتها  
من الضح يودي لفحها بالحواجب  
إذا ظلت البيداء تطفو أكامها  
وترسب في غمر من الأل ناضب  
فدع عنك ذكر البر، أني رأيته  
لمن خاف هول البحر شر المهارب  
كلا نزلييه صيفه وشتاؤه  
خلاف لما أهواه غير مصاقب  
لهات مميت تحت بيضاء سخنة  
وري مفيت تحت اسحم صائب  
يجف إذا ما الريق أصبح عاصبا،  
ويغدق لي والريق ليس بعاصب  
فيمنع مني الماء واللوح جاهد،  
ويفرقني والري رطب المحالب

وما زال يبغي الحتوف موارباً  
— يحوم على قتلي — وغير موارب  
فطوراً يفاديني بلص مصلت،  
وطوراً يمسيني بورد الشوارب  
إلى أن وقاني الله محذور شره  
بمزته، والله أغلب غالب  
فأقلت من ذؤبانته وأسوده  
وخرابه إفلات أتوب تائب

## السفر بحراً بدجلة

وأما بلاء البحر عندي فإنه

طواني على روع مع الروح واقب<sup>(1)</sup>

ولو ثاب عقلي لم أدع ذكر بعضه

ولكنه من هوله غير ثائب

ولم لا؟ ولو ألقيت فيه وصخرة

لوافيت منه القعر أول راسب

ولم أتعلم قط من ذي سباحة

سوى الفوص، والمضعوف غير مغالب

---

(1)

فأيسر إشفاعي من الماء أنني  
أمربه في الكوز مر المجانب!  
وأخشى الردى منه على كل شارب  
فكيف بأمنيه على نفس راكب  
أظلل إذا هزته ريح ولألات  
له الشمس أمواجاً طوال الغوارب  
كأنني أرى فيهن فرسان بهمة  
يليحون نحوي بالسيوف القواضب  
فإن قلت لي قد يركب اليم طامياً  
ودجلة عند اليمن بعض المذانب<sup>(1)</sup>  
فلا عذر فيها لامرئ هاب مثلها،  
وفي اللجة الخضراء عذر لهائب

---

(1)

فإن احتجائي عنك ليس بنائم  
وإن بياني ليس عني بمعازب  
لدجلة خب ليس لليم، إنها  
تراءى بحلم تحته جهل واثب  
تطامن حتى تطمئن قلوبنا،  
وتغضب من مزح الرياح اللواعب  
وأجرافها رهن بكل خيانة  
وغدر، ففيها كل عيب لعائب  
يرانا - إذا هاجت بها الريح هيجة  
تزلزل في حوماتها بالقوارب  
نوائل<sup>(1)</sup> من زلزالها نحو خسفها،  
فلا خير في أوساطها والجوانب

---

(1)

زلازل موج في غمار زواخر،  
وهدات خسف في شطوط خوارب  
ولليم أعدار بعرض متونه  
وما فيه من أذيه المتراكب  
ولست تراه في الرياح منزللاً  
بما فيه — إلا في الشداد الغوالب  
وإن خيف موج عيذ منه بساحل  
خَلِيٍّ من الأجراف ذات الكباكب  
ويلفظ ما فيه، فليس معاجلاً  
غريقاً بغت يزهب النفس كارب  
يعلل غرقاه إلى أن يفيثهم  
بصنع لطيف منه خير مصاحب:  
فتلقى الدلافين الكريم طباعها  
هناك رعاًلاً عند نكب النواكب



مراكب للقوم الذين كبا بهم،  
فهم وسطه غرقى وهم في مراكب  
وينقض ألواح السفين فكلها  
منج لدى نوب من الكسر نائب  
وما أنا بالراضي عن البحر مركباً  
ولكنني عارضت شغب المشاغب

## صيد الطير

وقد أغتدي للطير والطير هجع  
ولو أوجست مفداي ما بتن هجعا  
بخلين تما بي ثلاثة أخوة  
جسومهم شتى وأرواحهم معا  
مطيعين أهواء توافت على هوى  
فلو أرسلت كائنبل لم تعد موقعا  
إذا ما دعا منا خليل خليله:  
بأفديك. لباه مجيبا فأسرعا  
كان له في كل عضو ومفصل  
وجارحة قلبا من الجمر أصمعا

فـثـاروا إلى آلاتهم فـتـقلدوا  
خرايط حمرا تحمل السم منقعا  
محملة زادا خفيفاً مناطه  
من البندق الموزون قل وأقنعا  
وقد وقفوا للحائنات<sup>(1)</sup> وشمروا  
لهن إلى الإنصاف ساقاً وأذرعاً  
وجدت قسي القوم في الطير جدها  
فظلت سجوداً للرماة وركعاً  
فظل صحابي ناعمين بيؤسها  
وظلت على حوض المنية شرعا  
طرايح من أسود وبيض نواصع  
تخال أديم الأرض منهن أبقعا

---

(1)

نؤلف منها بين شتى، وإنما  
نشئت من ألفها ما تجمعا  
فكم ظاعن منهن مزعم رحلة  
قصرنا نواه دون ما كان أزمعا  
وكم قادم منهن مرتاد منزل  
أناخ به منا منيخ فججمعا  
كأن بنات الماء في صرح متنه  
إذا ما علا روق الضحى فترفعما  
زرابي كسرى بثها في صحانه  
ليحضر وفداً أو ليجمع مجمعا  
تريك ربيعاً في خريف، وروضة  
على لجة: بدعا من الأمر مبدعا

## الرماة

لهم عدة تكفيهم كل عدة:

بنات المنايا والحنى الموتى

يزلون عن أكباد كل حنية

خفافاً مع الأجال تعلقو وتقصر

نواها نواهم في المنايا، كأنما

مواقعها فيما يشاؤون تقدر

لها ألسن ما تستيق لهاها

يكاد لعاب الموت منهن يقطر

## سيف

خير ما استعصمت به الكف عضب

ذكر حده، أنيـث المهـز

ما تأملته بعينيك ألا

أرعدت صفحاته من غير هـز

مثله أفزع الشجاع إلى الدر

ع فعال به على كل بز

ما يبالي أصممت شـفـرتاه

في محز أو جازتا عن محز

مجالس الشراب  
والله





## القيان الأتراك (في مجلس القاسم)

أظلل إذا شاهدت يوم نعيه  
كأنني في الفردوس فوق الأرايك  
بمراى من الدنيا جميل ومسمع  
لدى ملك بالحق، لا متمالك  
تحت الحسان المحسنات كؤوسه  
بمدح له قد سار جم المسالك  
من الوضع اللبس الشفاه كأنما  
يفهن بأفواه الظباء الأوارك

يرفعن أصواتاً لمدانا وتارة  
ينمنن وشيا غير وشي الحوائك  
كفلن لنا لما اصطففن حيالنا  
بترجيل أضياف الهموم السوداء<sup>(1)</sup>  
فما برحت تهدي إلينا عجائب<sup>(2)</sup>  
عجائب تصبي كل صاب وناسك  
فتاة من الأتراك ترمي بأسهم  
يصبن الحشا في السلم لا في المعارك  
كأن زمير القاصبات أعارها  
شجاه وسجع الباكيات الضواحك  
ظللنا لها نصبا تشك قلوبنا  
بذاك الشجا الفتان لا بالنيازك

---

(1)

(2)

وما "جلنار" بالمقصر شاؤها  
ولا المتعدي قصد أهدى المسالك  
لطيفة قد الثدي تسند عودها  
إلى ناجم في ساحة الصدر فالك  
تطامن عن قد الطوال قوامها  
وأربى على قد القصار الحواتك  
ورقاصة بالطبل والصنج كاعب  
لها غنج مخنات، وتكره فاتك  
أتيح لها في جسمها رقد رافد  
وأن نالها في خصرها نهك ناهك  
إذا هي قامت في الشفوف أضاءها  
سناها فشفت عن سبيكة سابك  
سبايا إلهن استباء عقولنا  
ممالك ملكن اقتدار الممالك

## السوداء الحسناء (في مجلس عبد الملك بن صالح)

سوداء لم تنتسب إلى برص الشقر ولا كلفة ولا بهق ليست من  
العبس الأكف، ولا الفلح الشفاه، الخبائث العرق:

بل من بنات الملوكة ناعمة

تتشر بالعدل ميت الشبق

في لين سمورة تخيرها الفراء

أو لين جيد الدلق<sup>(1)</sup>

تذكرك المسك والغوالي والسد

ك ذوات النسيم والعبق

---

(1)

هيفاء زينت بخمص محتضن  
أوفى عليه نهود معتنق  
غصن من الأبنوس ألف من  
مؤتزر معجب ومنطق  
يهتز من ناهديه في ثمر  
ومن دواجي ذراه في ورق  
أكسبها الحب أنها صبغت  
صبغة حب القلوب والحدق  
فانصرفت نحوها الضمائر والأب  
صار يعنقن أيما عنق  
يفترذاك السواد عن يقق  
من ثغرها كاللالي النسق

كأنها والمزاح يضحكها

ليل تقري دجاه عن فلق

سمحاء كالمهرة المطهمة الدهم

مساء تنضو أوائل السبق

## الشراب في الخمائل

وصفراء بكر، لا قذاها مغيب

ولا سر من حلت حشاها مكرم

ينم على الأمرين فرط صفائها

وسورتها حتى يبوح المجمع

هي الورس في بيض الكؤوس، وإن

لعينيك في بيض الوجوه فعندم

مذاق ومسرى في العروق كلاهما

ألذ من البرء الجديد وأنعم

إذا نزلت بهم في دار أهله  
غدا لهم وهو المرهق المتهم  
أقامت بيت النار تسعين حجة  
وعشراً صلى حولها ويزمزم  
سقتني بها بيضاء، فوها وكأسها  
شبيهاً مذاق عند من يتطعم  
لدى روضة فيها من النور أعين  
ترقرق دمعاً، بل ثغور تبسم  
يضاحك روق الشمس منها مضاحك  
مدامعه من واقع الطل سجم  
كمستعير مستبشر بعد حزنه  
لبين خليط قوضوا ثم خيموا  
يغازلني فيها غزالان منهما  
ريب الفيا في والريب المتوم



إذا نصبا جيديهما فكلاهما

سواء وأبريق لديّ مفدم<sup>(1)</sup>

ثلاثة أظب نجرها غير واحد

لذي اللهو فيها كلها متنعم

غزال، وأبريق رذوم، وغادة

تحرك من أوتارها وتنعم

---

(1)

## في وحيد المغنية

يا خليلي تيمتني وحيد  
فضا دي بها معنى عميد  
غادة زانها من الغصن قد  
ومن الطيبي مقلتان وجيد  
وزهاها من فرعها ومن الخدي  
من ذاك السواد والتوريد  
أوقد الحسن ناره في وحيد  
فوق خد ما شأنه تخديد  
فهني برد بخدها وسلام  
وهي للعاشقين جهد جهيد

لم تضر قط وجهها وهو ماء  
وتذيب القلوب وهي حديد  
ما لما تصطليه من وجنتيها  
غير ترشاف ريقها تبريد  
مثل ذلك الرضاب أطفأ ذلك  
الوجد لولا الأباء والتصريد<sup>(1)</sup>  
وغرير بحسنها قال: صفها!  
قلت: أمران، هين وشديد  
يسهل القول أنها أحسن الأشياء  
طراً ويعسر التحديد  
شمس دجن، كلا المنيرين - من شمس  
ويدر - من نورها يستفيد  
تتجلى للناظرين إليها  
فشقي بحسنها وسعيد

---

(1)

ظبية تسكن القلوب وترعا  
ها ، وقمرية لها تغريد  
تتغنى ، كأنها لا تغني  
من سكون الأوصال ، وهي تجيد  
لا تراها هناك تجحظ عين  
لك منها ، ولا يدروريد  
من هدو وليس فيه انقطاع  
وسجو وما به تلبيد  
مد في شأو صوتها نفس كاف  
كأنفاس عاشقها مديد  
وأرق الدلال والفنج منه  
وبراه الشجا فكاد بييد  
فتراه يموت طوراً ويحيا  
مستلذ بسيطه والنشيد

ففيه وشي، وفيه حلبي من  
النغم مصوغ يختال فيه القصيد  
طاب فوها وما ترجع فيه  
كل شيء لها بذاك شهيد  
ثقب<sup>(1)</sup> ينقع الصدى، وغناء  
عنده يوجد السرور الفقيد  
فلها الدهر لاثم مستزيد  
ولها الدهر سامع مستعيد  
في هوى مثلها يخف حلبيم  
راجح حلمه، ويغوى رشيد  
ما تعاطي القلوب إلا أصابت  
بهواها منهن حيث تريد

---

(1)

وتر العزف في يديها مضاء  
وتر الرجف فيه سهم شديد  
وإذا أنبضته للشرب يوماً  
أيقن القوم أنها ستصيد  
معبد في الغناء وابن سريج  
وهي في الضرب زلزل وعقيد  
عيبها أنها إذا غنت الأحرار  
ظلموا وهم لديها عبيد  
واستزادت قلوبهم من هواها  
برقاها، وما لديهم مزيد

\* \* \*

وحسان عرضن لي، قلت: مهلاً  
عن وحيد فحقها التوحيد

حسنها في العيون حسن وحيد  
فلها في القلوب حب وحيد  
ونصبح بلومني في هواها  
ضل عنه التوفيق والتسديد  
لو أرى من يلوم فيه، لأضحى  
وهو المسترث والمستزيد  
ضلة للفؤاد يحنو عليها  
وهي تزهر حياتها وتكيد  
سحرته بمقاتليها فأضحت  
عنده والذميم منها حميد  
خالقت فتنة غناء وحسنا  
مالها فيهما جميعاً نديد  
فهي نعمى، يميد منها كبير  
وهي بلوى، يشيب منها وليد

لي حيث انصرفت منها رفيق  
من هواها، وحيث حلت قعيد  
عن يميني وعن شمالي وقدامي  
وخلفي، فأين عنه أحييد؟  
سد شيطان حبها كل فج  
إن شيطان حبها لمريد  
ليت شعري إذا أدام إليها  
كرة الطرف مبدئ ومعيد  
أهي شيء لا تسأم العين منه؟  
أم لها كل ساعة تجديد؟  
بل هي العيش لا يزال متى أست  
عرض يملئ غرائباً ويفيد  
منظر، مسمع، معان من  
اللهو، عتاد لما يحب عتيد



لا يدب الملاك فيها ، ولا ينقض  
من عقد سحرها توكيد

حسنها في العيون حسن جديد  
فلها في القلوب حب جديد

\* \* \*

أخذ الله يا وحيد لقلبي  
منك ما يأخذ المديل المقيد

حظ غيري من وصلكم قرة  
العين ، وحظي البكاء والتسويد

غير أني معلل منك نفسي  
بعدادات خلا لهن وعيد

ما تزالين نظرة منك موت  
لي مميت ، ونظرة تخليد

نتلاقى، فلحظة منك وعد  
بوصال، ولحظة تهديد  
قد تركت الصحاح مرضى يميدون  
نحولاً وأنت خوط يميد  
ضافني حبك الغريب، فألوى  
بالرقاد النسيب فهو طريد  
عجباً لي، أن الغريب مقيم  
بين جنبي، والنسيب شريد  
قد مللنا من ستر شيء مليح  
نشتهي، فهل له تجريد!  
هو في القلب وهو أبعد من  
نجم الثريا فهو القريب البعيد

## رثاء بستان المغنية

إننا إلى الله راجعون لقد  
غال الردى سيرة من السير  
ما أولع الدهر في تصرفه  
بل زين له ومفتخر  
يعدو على نفسه في سلبها  
الأعتاد المعمد ذي النمر  
كم ملبس لا يعاب هتكه  
عن جدله منه شتة الوبر<sup>(1)</sup>

---

(1)

أودى ببستان وهي حلته  
فقد غدا عارياً من الحبر  
أطار قمرية الفناء عن الأرض  
فأي القلوب لم يطر  
لله ما ضمنت حفيرتها  
من حسن مرأى وطهر مختبر  
أضحت من الساكني حفاثرهم  
سكنى الغوالي مداهن السرر  
مطيبى كل تربة خبثت  
ومؤنسيها بشر مجتور  
يا حر صدري على ثلاثة أمواه  
هرقت في الترب والمدر  
ماء شباب ونعمة مزجا  
بماء ذاك الحياء والخفر

لو يعلم القبر من أتيح له  
لا نحفر القبر غير محتفر  
أو لأباهما، فصان حينئذ  
عن رمسه درة من الدرر  
إن ثرى ضمها لأفضل محجو  
ج لصب وخير معتمر  
أقسمت بالفنج من ملاحظها  
وسحر ذاك السجو والفتر  
لو عقرت حول قبرها بقر  
الأنس مكان القلاص والمهر  
والدر نظم على الترائب منهن،  
وأشكاله من العتر  
وانتحرت في فنائه بهم الحرب  
وصيد الملوك من مضر

ثم سقيت الدماء تـرـيـتـها  
لم أشف ما في الفؤاد من وحر  
نفسك يا نفس فأنحري أسفا  
فإن هذا أوان منتحـر  
ما حسن أن تذوب مهجتها  
ومهجتي لم تـرق ولم تمر  
لا ينكر الدهر بعد مهاكها  
هلك ذوات الجلال والخطر  
بستان يا حسرتا على زهر  
فيك من اللهو، بل على ثمر  
بستان لهفي لحسن وجهك والإحـسـ  
ان، صاراً معاً إلى العفر  
بستان أضحى الفؤاد في وله  
يا نزهة السمع منه والبصر

بستان ما منك لامرئ عوض  
من البساتين، لا ولا البشر  
بستان أسقيت من مدامعنا الـ  
دمع، وأعقبت عقبة المطر  
بل حق سقياك أن تكون من الصد  
هباء، صهباء حمص أو جدر  
بل من رحيق الجنان يقطب  
بالمسك، سلالاته بلا عكر  
بل من نجيع القلوب يمزج بالـ  
عطف وصفو الوداد لا الكدر  
يا نعمة الله في بريته  
أصبحت إحدى فواقر الفقر  
يا غضة السن يا صغيرتها  
أمسيت إحدى المصائب الكبر

إنني اختصرت الطريق يا سكاني  
إلى لقاء الأكفان والحفر  
أنني تجشمت في الحوادث ما  
جشمت من كره ذلك السفر  
أحميك من مورد قصدت له  
لا ينتهي ورده إلى صدر  
يا شمس زهر الشموس، يا قمر  
الأقمار حسناً، يا زهرة الزهر  
أبعد ما كنت باب مبهج  
للنفس أصبحت باب معتبر  
أصبحت كالتراب غير راجحة  
به، وقد ترجحين بالبدر  
أصابنا الدهر فيك أكمل ما كن  
ت، فما رزؤنا بمجتبر



لم تقتحمك العيون من صغر  
ولا قلتك النفوس من كبر  
فكيف تسلك والأسى أبداً  
في كبر، والسلو في صغر  
كل ذنوب الزمان مغتفر  
وذنبه فيك غير مغتفر  
تبتل العود عند فقدكم  
وازدجر اللهو كل مزدجر  
وغاب عنا السرور بعدكم  
واحتضر الهم حين محتضر  
وفاض ماء النعيم يتبعكم  
وانهمر الدمع كل منهمر  
فإن سمعنا لمزهر وترا  
حن، فهاتيك عولة الوتر

أما ولؤم البلى وقسوته  
لقد محا منك أحسن الصور  
يا بشرا صاغه المصور من  
نور على سنة من الفطر  
بل من شعاع العقول حين ترى  
الغيب بعين الذكاء والعبر  
لا تحسبوني غنيت بعدكم  
عنكم بشمس الضحى ولا القمر  
لا تحسبوني أنست بعدكم  
إلى نسيم الشمال بالسحر  
لا تحسبوا العين بعدكم سرحت  
في مسرح من مسارح النظر  
يأبى لها ذاك أن ناظرها  
في شغل بالسهاد والعبر

وكيف بالنوم للمباشر أطرا  
في حمات الحيات والإبر  
سقيا ورعيا لعيشة معكم  
أصحت من عهدا بمفتقر  
أمتعني دهرها بغبطته  
على الذي كان فيه من قصر  
كانت ليالیه كلها سحراً  
وكان أيامهن كالبكر  
لهو أطفنا بيكر لذته  
وأن حظينا بمونق الزهر  
كم قد شريت الرضاب في قبل  
كانت، ولكن شريت بالغمر<sup>(1)</sup>

---

(1)

جدوى فم فيه لؤلؤ وبنى  
نحل بماء السحاب في النقر  
غناؤه يشتكى حرارته  
وريقه يشتكى من الخصر  
كنتم لنا فتنة من الفتن الـ  
غربلا شهرة من الشهر

\* \* \*

كأنني ما طلعت مقبلة  
علي يوماً بأملح الطرر  
في كفك العمود وهو يؤذن  
بالإحسان أيدان صادق الخبر  
إذ مشيكم مذكري غناءكم  
مشى الهوينى سواكن البقر

وإذ فسادي بكم يذكرني

"لتفسدن الطواف في عمر"<sup>(1)</sup>

كأن عيني ما أبصرتك ضحى

في مجلسي - والوشاة في سقر -

كأنها ما رأتك كالملك الأصيل

في الستاغ يوم مبتهر

يا أحسن العالمين حاسرة

وأكمل الناس عند معتمر

كأنها ما رأتك صادحة

والصدح الورق عكف الزمر

---

(1) :

"

"

يسمعن، أو يستفدن منك شجا  
والتمر يمتار من قرى هجر  
كأنني ما اقترحت ما اقترحت  
نفس، فساعفتني بلا زور<sup>(1)</sup>  
كأنني ما استعدت مقترحي  
يوماً فكررتة بلا ضجر  
وصنت خدا كساه خالقه  
الحسن، فصعرتة عن الصعر  
ولو تكبرت كنت معذرة  
والمسك ما لا يعاف بالذفر  
كأنني ما نعمت منك  
بمرتاح نعيم ولا بمبتكر

(1)

رضيت من منظر بطيف كرى  
يعرو، ومن مسمع بمدكر  
لولا التعزي بذاك أونة  
لانفطر القلب كل منفطر<sup>(1)</sup>  
ما انتهك الدهر قبلكم لذوي  
اللهو حريماً في البدو والحضر  
أبكيك بالدمع والدماء بل  
التسهاد بل بالمشيب في الشعر  
بل بنحول العظام محتقراً  
ذاك وإن كان غير محتقر  
بل باجتنا ب الشفاء بل بتوخي  
النفس ما يتقي من الضرر

\* \* \*

(1)

لا أسأل الله حسن مصطبر  
فإنه عنك لؤم مصطبر  
وحزن نفسي عليك من كرم  
وهو على من سواك من خور  
وقد يعزى الفؤاد أنك في  
جنة عدن غداً وفي نهر  
سيشفع الحور فيك أنك  
منهن بذاك الدلال والحور



## هـءاء أءى سللمان المنى

ومسمع لاء عمءم فرقه  
فإنها نعمة من النعم  
ىطول يومى إذا قرنت به  
كأنى صائم، ولم أصم  
إذا تغنى النءىم ذكره  
أخذ السىاق<sup>(1)</sup> الحىث بالكظم  
ىفتح فاه من الهاء كما  
ىفتح فاه لأعظم اللقم

---

(1)

مجلسه ماتم اللذاذة والقصد

ف وعرس الهموم والسدم<sup>(1)</sup>

ينشدنا اللهو عند طلعتة:

"من أوحشته البلاد لم يقم<sup>(2)</sup>

كأنني طول ما أشاهده

أشرب كأسي ممزوجة بدمي

تشهده فرط ساعتين فين

سيك عهداً لم توت من قدم

يريك ما قد عهدت في أمسك

الأدنى، كشيء في سالف الأمم

عشرته عشرة تبارك في الأعـ

مار لولا تعجل الهرم

---

(1)

(2)

إذا الندامى دعوه أوننة  
تنادموا كأسهم على ندم  
نبرد، حتى يظل ينشدنا:  
هل بالديار الغداة من صمم!  
يستطعم الشرب أن يقال له  
"أحسنت!" والقوم منه في وكم<sup>(1)</sup>  
وكيف للقوم بالتصنع؟ لا كيف،  
ولو صوروا من الكرم  
يظهر في وجهه إساءته  
كأنها مسحة من الحمم  
يسود من قبح ما يجيء به  
حتى كأن قد أسف بالفحم

---

(1)

يرتاح منه إلى الأذان كما  
يرتاح ذو شقة إلى علم  
يشدو بصوت يسوء سامعه  
تبارك الله بارئ النسم  
أبح فيه شذور حشرجة  
منظومة في مقاطع النغم  
نبرته غصّة، وهزته  
مثل نبيب التيوس في الغنم  
لو قدس الله ذو الجلال به  
لم يرفع الله طيب الكلم  
يفزع الصبية الصغار به  
إذا بكا بعضهم ولم ينم  
يقسو له القلب - حين يسمعه -  
على أحبائه بلا جرم

أحلف بالله لا شريك له  
فأنها غاية من القسم  
ما عرف الله قبله أحداً  
ما فضل نعمائه على النقم

## هجو شنطف

شنطف يا عمودة السموات والأر  
ض وشمس النهار والقمر  
إن كان إبليس خالقاً بشراً  
فأنت - عندي - من ذلك البشر  
صور المارد اللعين فأعطت  
ك يدها مقابح الصور

## هجو كنيزة

شاهدت في بعض ما شاهدت مسمعة

كأنما يومها يومان في يوم

تظل تلقي على من ضم مجلسها

قولاً ثقيلاً على الأسماع كاللوم

لها غناء يثيب الله سامعه

ضعفي ثواب صلاة الليل والصوم

ظللت أشرب بالأرطال لا طربا

عليه بل طلباً للسكر والنوم

## طلاب المآذب

(قصيدة فيها وصف ودعابة قالها في أبي شيبة

ابن الحاجب وكان قد دعاه واستتر عنه)

نداك يا ابن الحاجب الحاجب،

وأين ينجو مني الهارب!

أبعث أحراذك إيماننا

هاربتنا واعتذر الحاجب؟

يا عجباً إذ ذاك من حالة

دافعنا فيها هو الجاذب

حقاً لقد أوليتنا جفوة

يمحل منها البلد العاشب



انظر بعين العدل تبصر بها

أنك عن منهاجه ناكب

\*\*\*

لهفى وقد جاءتك جفالة

كل مغذ ساغب لاغب

من كل شذان الحشا لهسم<sup>(1)</sup>

يأكل ما لا يأكل الحاسب

فكاه كالعصرين من دهره

كلاهما في شأنه دائب

ذي معدة تعلقبها لاحس

وتارة أرنببها ضاغب

تعلوه حمى شره نافض

لكن حمى هضمه صالب

---

(1)

كأنما الفـروج في كفه  
فريسة ضـرغامها دارب  
وأن غدا الشبوط قرناً لهم  
فخذ شـبوطم التارب  
أقسمت لو أنك لاقيتهم  
نابك من أضرارهم نائب

\* \* \*

أبشر بكر عاجل أنني  
بالتار في أمثالها طالب  
لا تحسبني عنك في غفلة  
عودي وشيك أيها الصاحب  
قلت لصحبي حين راوغتهم:  
"لا تحزنوا، قد يشهد الغائب

سَيَصْنَعُ اللَّهُ لَنَا فِي غَدٍ  
إِنْ كَانَ أَكْذَى يَوْمَنَا الْخَائِبِ  
كِرُوا عَلَى الشَّيْخِ بِتَطْفِيلَةٍ  
عَنْ عَزْمَةِ كَوْكَبِهَا ثَائِبِ  
وَإِنْ زَوَاهِ مَنَنْكُمْ جَانِبِ  
فَلَا يَفْتَكُمُ ذَلِكَ الْجَانِبِ  
جُوسُوا عَلَيْهِ الْأَرْضِ وَاسْتَجْبِرُوا  
حَتَّى يَرْوِحَ الْخَبِيرُ الْعَازِبِ  
لَا تَنْجُونَ مَنَكُمْ شَيْبَابِيئِهِ  
لَا أَفْلَتَ الطَّالِجِ وَلَا الرَّاسِبِ  
جَدُوا فَقَدْ جَدَ بِكُمْ لِاعْبَاءِ  
وَقَدْ يَجِدُ الرَّجُلُ اللَّاعِبِ  
وَلَيْكُنِ الْكُرُّ عَلَى غُرَّةِ  
وَالصَّيْدُ فِي مَأْمَنِهِ سَارِبِ

مقالة قمت بها خاطباً

وقد يصيب الغرة الخاطب

\*\*\*

فاعتزم القوم على غارة

ساند فيها الراجل الراكب

يهدي أبو عثمان كردوسها<sup>(1)</sup>

هذاك، ذاك الطاعن الضارب

يرقل والبراية في كفه

قد حفها الرامح والناشب

والقوم لاقوك فأعدد لهم

ما يرتضي الأكل والشارب

يسر فراريجك مقرونة

بها شباييط يا كاتب

---

(1)

تلك التي مخبرها ناعم  
تلك التي منظرها شاحب  
واذكر بقلب غير مستوهل  
يعروه من ذكرى القرى ناخب  
أنك من جيران قطر بل  
وعندك اللقحة والحالب  
فاسق حليب الكرم شرابه  
إذ ليس من شأنهم الرائب  
أحضرهم البكر التي ما اصطلت  
ناراً، فكل خاطب راغب  
تلك التي ما بايتت راهبا  
إلا جفا قنديله<sup>(1)</sup> الراهب

---

(1)

تلك التي ليس لها مشبه  
في الكاس إلا الذهب الذائب  
أو أمها الكبرى<sup>(1)</sup> التي لم يزل  
للليل من طلعتها جانب  
حققها بالشمس أن ربيت  
في حجرها، والشبه الغالب  
أعجب بتلك البكر محجوبة  
مكروية يجلى بها الكارب  
مغلوبة في المدن مسلوية  
لها انتصار غالب سالب  
بيننا ترى في الزق مسحوبة  
إذ حكمت أن يسحب الساحب

---

(1)

تقتص من واترھا صرعة  
ليس لها براك ولا نادب  
إلا حمام الأيك في أيكة  
أو عازف للشرب أو قاصب  
ذات نسيم مسكه فائح  
وذات لون ورسه خاضب  
هاتيك هاتيك على مثلها  
حمام ولاب الحائم اللائب  
والنقل والريحان من شأنهم  
فلا يعب فقدهما عائب  
ولا تنم عن نرجس مؤنس  
يضحك عنه الزمن القاطب  
ريحان روح منهب عطره،  
والروح إذ ذاك هو الناهب

لم يلقح الصيف له صفحة  
ولا سقاه عوده الشاسب<sup>(1)</sup>  
وزخرف البيت، كما زخرفت  
روضة حزن جادها هاضب  
وأجلب لهم حسناء في شدوها  
— لكل ما سرهم — جالب  
محسنة ليست بخطاءة  
طائرها الهادل لا الناعب  
بيضاء خودا ردفها ناهد  
غيداء روداً ثديها كاعب  
مملوكة بالسيف مفضوبة  
لها دلال مالك غاصب

---

(1)



تستوهب الجيد إذا أتلمعت  
من ظبية أفزعها طالب  
نعيم من نادمها دائم  
ويرج من فارقتها واصب  
كأنها والبيت مستضحك  
والعود في قبضتها صاحب  
أدمنة تزب في روضة  
جاوبها خشف لها نازب<sup>(1)</sup>  
وأصيب عليهم تحفا جمعة  
يحمى بهن الموعد الكاذب  
وأغرم لهم من بعد ذا كله  
ما نفل الملاح والقارب

---

(1)

وتب من الذنب الذي جئته  
فقد يقال<sup>(1)</sup> المذنب التائب

كيفما يقولوا حين ترضيهم:  
يا حبيذا المنهزم التائب

\* \* \*

أعتب بيوم صالح فيهم  
ليس على أمثاله عاتب

ولا يكن يوماً إذا ما انقضى  
صحيح به: لا رجع الذاهب

عجل لهم ذاك ولا تهجم  
ولا يثب منك به واثب

فليس من يأذب إخوانه  
مؤدباً للقوم بل آذب

---

(1)

أخلفنا نـوؤك موعـوده

فلا تصبنا ربحك الحاصب

حاشاك أن يلقاك مستمطر

ومزنك الصاعق لا الصائب

## اللوزينج

(وهو حلواء تشبه القطائف تؤدم بدهن اللوز)

لا يخطئني منك لوزينج

إذا بدا أعجب أو عجباً

لم تغلق الشهوة أبوابها

إلا أبت زلفاه أن يحجبا

لو شاء أن يذهب في صخرة<sup>(1)</sup>

لسهل الطيب له مذهباً

يدور بالنفخة في جامه

دوراً ترى الدهن له لولبا

---

(1)

عاون فيه منظر مخبراً  
مستحسن ساعد مستعذبا  
كالحسن المحسن في شدوه  
تم فأضحى مطربا مضربا  
مستكثف الحشو ولكنه  
أرق قشراً من نسيم الصبا  
كأنما قادت جلايبه  
من أعين القطر الذي قبا  
يخال من رقة خرشائه<sup>(1)</sup>  
شارك في الأجنحة الجندبا  
لو أنه صور من خبزه  
ثغر لكان الواضح الأشنبا

---

(1)

من كل بيضاء يحب الفتى  
أن يجعل الكف لها مركبا  
مدهونة زرقاء، مدفونة  
شبهاء، تحكى الأزرق الأشهب  
ملذعين وفم، حسنت  
وطيبت حتى صبا من صبا  
ذيق لها اللوز فلا مرة  
مرت على الذائق إلا أبى  
وانتقد السكر نقاده  
وشاوروا في نقده المذهب  
فلا إذا العين رأتهما نبت  
ولا إذا الضرس علاهما نبا

## الشبوط

فلا يبعد الشبوط من متلبس

ظهارته الحسنى، ومن متجرد

إذا نش في سفوده عند نضجه

وأخرج من سرياله المتورد

فنى رعى مرعى بدجلة مخصبا

أبى أن يراه زائد غير محمد

إلى أن أصابته من الدهر نوبة

وقد صار أقصى منية المتجود

فأصدره الصياد عن خير مورد

وأورده الشواء أخبث مورد

وجاء به الحمال أطيب مطعم  
إلى الطيب المنفاق غير المصرد  
ويا حبذا إمعاننا فيه ناضجا  
كما جاء من تنوره المتوقد  
وأنني لمشتاق إلى عود مثله  
وإن كنت أبدي صفحة المتجدد



## الذجاجة

وسميطة صفراء دينارية

ثمناً ولوناً زفها لك حزور<sup>(1)</sup>

عظمت فكادت أن تكون أوزة،

ونوت فكاد أهابها يتفطر

ظللنا نقشر لحمها عن جلدها

وكان تبراً عن لجين يقشر

---

(1)

## فواكه أيلول

لولا فواكه أيلول إذا اجتمعت

من كل نوع ورق الجو والماء

إذا لما حفلت نفسي متى اشتملت

على هائلة الجالين غبراء

## الموز

إنه (الفوز) مثل ما فقدته (المو  
ت) لقد بان فضله لا خفاء  
ولهذا التأويل سماه (موزا)  
من أفئاد المعاني الأسماء  
رب فاجعله لي صيوحاً وقبلاً  
وغبوقاً وما أسأت الغذاء  
وأرى — بل أبت — أن جوابي:  
"لا تغالط، فقد سألت البقاء"  
نكهة عذبة وطعم لذيذ  
شاهداً نعمة على نعماء

لو تكون القلوب مأوى طعام  
نازعته قلوبنا الأحشاء  
أنني للحقيق بالشبع السـ  
أئغ من أكله وإن كان ماء

## كرمة العنب الراقى

ورازقى مخطف الخصور  
كأنه مخازن البلور  
لم يبق منه وهج الحرور  
إلا ضياء في ظروف نور  
لو أنه يبقى على الدهور  
قرط آذان الحسان الحور  
له مذاق العسل المشور  
ونكهة المسك مع الكافور  
ويرد مس الخصر المقرور

باكرته والطير في الوكور  
- وعذر اللذات في البكور -  
بفتية من ولد المنصور  
أملأ للعين من البذور  
حتى أتينا خيمة الناطور  
قبل ارتفاع الشمس للذور  
فانتقض كالتاوي من الصقور  
بطاعة الراغب لا المجبور  
ثم جلسنا مجلس المحبور  
على حفا في جدول مسجور<sup>(1)</sup>  
أبيض مثل المهرق المنشور  
أو مثل متن المنصل المشهور

(1)

ينساب مثل الحية المدعور  
بين سماطي شجر مسطور  
فنيكت الأوطار في سرور  
وكل ما نقضي من الأمور  
تعلقة عن يومنا المنظور  
ومتعة من متع الغرور





## المرأة والحب



## النساء

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان

فيهن نوعان تفاح ورمان<sup>(1)</sup>

وفوق ذينك أعناب مهدلة

سود لهن من الظلماء ألوان<sup>(2)</sup>

وتحت ذلك عناب تلوح به

أطرافهن قلوب القوم قنوان<sup>(3)</sup>

غصون بان عليها - الدهر - فاكهة

وما الفواكه مما يحمل البان

---

(1) ( )

(2)

(3) ( )

ونرجس بات ساري الطل يضربه

وأقحوان منير النور ريان<sup>(1)</sup>

الفن من كل شيء طيب حسن

فهن فاكهة شتى وريحان

ثمار صدق إذا عاينت ظاهرها

لكنها حين تبلو الطعم خطبان<sup>(2)</sup>

بل حلوة مرة، طوراً يقال لها

شهد، وطوراً يقول الناس ذيفان<sup>(3)</sup>

يا ليت شعري – وليت غير مجدية

إلا استراحة قلب وهو أسوان –

لأي أمر مراد بالفتى جمعت

تلك الفنون فضمتهن أفنان؟

---

(1) ( )

(2)

(3)

تجاورت في غصون لسن من شجر  
لكن غصون لها وصل وهجران  
تلك الغصون اللواتي في أكمتها  
نعم ويؤس وأفراح وأحزان  
يبلو بها الله قوماً كي يبين له  
ذو الطاعة البرممن فيه عصيان  
وما ابتلاهم لأعنات ولا عبث  
ولا لجهل بما يحويه أبطان  
لكن ليثبت في الأعناق حجته  
ويحسن العضو، والرحمان رحمان  
ومن عجائب ما يمنى الرجال به  
مستضعفات لنا منهن أقران  
مناضلات نبيل لا تقوم له  
كتائب الترك يزجيهن خاقان

مستظهرات برأى لا يقوم له  
قصير عمرو، ولا عمرو ووردان  
من كل قاتلة قتلَى، وأسرة  
أسرى وليس لها في الأرض أثنان  
يولين ما فيه أغرام، وآونة  
يولين ما فيه للمشعوف سلوان  
ولا يدمن على عهد لمعتقد  
أنى؟ وهن كما شبهن بستان  
يميل طوراً بحمل ثم يعدمه  
ويكتسي ثم يلقى وهو عريان

## امتزاج روحين

أعانقها ، والنفس بعد مشوقة

إليها : وهل بعد العناق تدان؟

وألثم فاهها كي تموت حزازتي

فيشئت ما ألقى من الهيمان

وما كان مقدار الذي بي من جوى

ليشفيه ما ترشف الشفتان

كأن فؤادي ليس يشفى غليله

سوى أن يرى الروحين تمتزجان

## لمحة التوديع

رب كعاب في حجاب لم تنزل  
مثل الفزال عنقاً ومكتحل  
لم تكتحل مقلتها سوى الكحل  
ولا تحلى جيدها سوى العطل  
ما زلت منها في مطال وعلل  
حتى إذا ما قدر البين نزل  
خلصت منها نظرة على وجل  
آخرها أولها من العجل  
ثم أجننتها غيابات الكلل



## الشباب الراحل

أبين ضلوعي جمرة تتوقد

على ما مضى؟ أم حسرة تتجدد؟

خليلي ما بعد الشباب رزية

يجم لها ماء الشؤون ويمتد

فلا تلحيا أن فاض دمع لفقده

فقل له بحر من الدمع يثمد

ولا تعجبا للجلد بيكي، فريما

تقطر عن عين من الماء جلمد

شباب الفتى مجلوده وعزاؤه

فكيف؟ وأنسى؟ بعده يستجلد

وفقد الشباب الموت، يوجد طعمه  
صراحاً، وطعم الموت بالموت يفقد  
رزئت شبابي عودة بعد بدأة  
وهن الرزايا بادئات وعود  
سلبت سواد العارضين وقبله  
بياضهما المحمود إذ أنا أمرد  
وبدلت من ذلك البياض وحسنه  
بياضاً ذمياً لا يزال يسود  
لشتان ما بين البياضين: معجب  
أنيق، ومشنوء إلى العين أنكد  
تضاحك في أفنان رأسي ولحيتي  
وأقبح ضحاكين شيب وأردد<sup>(1)</sup>

---

(1)

وكننت جلاء للميون من القذى  
فقد جعلت تقذى بشيبي وترمد  
هي الأعين النجل التي كنت تشتكى  
مواقعها في القلب، والرأس أسود  
فما لك تأسى الآن لما رأيتها  
وقد جعلت مرمى سواك تعمد  
تشكى إذا ما أقصدتك سهامها  
وتأسى إذا نكبن عنك وتكمد  
كذلك تلك النبل من وقعت به  
ومن صرفت عنه من القوم - مقصد<sup>(1)</sup>  
إذا عدلت عنا وجدنا عدولها  
كموقعها في القلب، بل هو أجد

---

(1)

تنكب عنا مرة، فكأنما  
منكبها عنا إلينا مسدد  
كفى حزنأ أن الشباب معجل  
قصير الليالي، والمشيب مخلد  
إذا حل، جرى المرء شأو حياته  
إلى أن يضم المرء والشيب ملحد  
أرى الدهر أجرى ليله ونهاره  
بعدل، فلا هذا ولا ذاك سرمد  
وجار على ليل الشباب فضامه  
نهار مشيب سرمد ليس ينفد  
وعزاك عن ليل الشباب معاشر  
فقالوا نهار الشيب أهدى وأرشد  
وكان نهار المرء أهدى لسعيه  
ولكن ظل الليل أندى وأبرد

أأيام لهوي هل مواضيك عود؟

وهل لشباب ضل بالأمس منشد؟

أقول وقد شابت شواتي، وقوست

قناتي، وأضحت كدنتي<sup>(1)</sup> تتخذ

ودب كالل في عظامي أدبني

جنيب العصا آنآد أو أتأيد

وبورك طريفي، فالشخص حياه

قرائن - من أدنى مدى - وهي فرد

ولذت أحاديثي الرجال، وأعرضت

سليمي وريا عن حديثي ومهدد

ويدل إعجاب الفواني تعجبا

فهـن روان يمتـبرن وصدد

---

(1)

لما تؤذن الدنيا به من صروفها  
يكون بكاء الطفل ساعة يولد  
وإلا فما يبكيه منها وأنها  
لأفسح مما كان فيه وأرغد  
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه  
بما سوف يلقى من أذاها مهدد  
وللنفس أحوال تظل كأنها  
تشاهد فيها كل غيب سيشهد  
لعبت بأولى الدهر، فاغتال شرطي  
بأخرى حقود، والجرائم تحقد  
فصبراً على ما اشتد منه، فإنما  
يقوم لما يشتد من يتشدد  
بذيق الفتى طوري رخاء وشدة  
حوادثه، والحوال بالحوال يطرد

ومالي عزاء عن شبابي علمته

سوى أنني من بعده لا أخلد

وأن مشيبي "واعد" بلحاظه

وإن قال قوم أنه "يتوعد"

## دمعة على الشباب

لا تلح من ييكي شبيته  
إلا إذا لم يبكها بدم  
عيب الشبية غول سكرتها  
مقدار ما فيها من النعم  
لسنا نراها حق رؤيتها  
إلا زمان الشيب والهرم  
كالشمس لا تبدو فضيلتها  
حتى تغشي الأرض بالظلم  
ولرب شيء لا يبينه  
وجدانه إلا مع العدم



## حلم زائل

رأيت سواد الرأس واللّهو تحته

كليل وحلم بات رائيه ينعم

فلما اضمحل الليل زال نعيمه

فلم يبق إلا عهد المتوهم



## الأحداث السياسية



## مصرع أبي الحسين يجيب من أحفاد علي

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج  
طريقان شتى: مستقيم وأعوج  
إلا أي هذا الناس طال ضريركم  
بآل رسول الله فاخشوا، أو ارتجوا  
أكل أوان للنبى محمد  
قتيل زكي بالدماء مخرج  
تبيعون فيه الدين شر أئمة —  
فله دين الله، قد كان يمرج<sup>(1)</sup>

\* \* \*

(1)

بنى المصطفى! كم يأكل الناس شلوكم؟  
لبلواكم — عما قليل — مفرج  
أما فيهم راع لحق نبيه  
ولا خائف من ربه يتحرج  
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم،  
كأن كتاب الله فيهم مجمع<sup>(1)</sup>  
ألا خاب من أنساه منكم نصيبه  
متاع من الدنيا قليل وزبرج

\* \* \*

أبعد المكنى بالحسين شهيدكم  
تضيء مصابيح السماء فتسرح  
لنا وعلينا — لا عليه ولا له —  
تسحسح أسراب الدموع وتتشج

(1)

وكيف نبكي فائزاً عند ربه  
له في جنان الخلد عيش مخرفج<sup>(1)</sup>  
وقد نال في الدنيا سناء وصيته  
وقام مقاماً لم يقمه مزلج<sup>(2)</sup>  
فأن لا يكن حياً لدينا، فإنه  
لدى الله حي في الجنان مزوج  
وكنا نزجيه لكشف عماية  
بأمثاله أمثاله تتبلج  
فساهمنا ذو العرش في ابن نبيه  
ففاض به، والله أعلى وأفلج  
أحيى العلي لهفي لذكراك لهفة  
يباشر مكواها الفؤاد فينضج

---

(1)

(2)

لمن تستجد الأرض بعدك زينة  
فتصبح في أثوابها تتبرج؟  
سلام وريحان وروح ورحمة  
عليك، وممدود من الظل سجسج  
ولا برج القاع الذي أنت جاره  
يرف عليه الأقحوان المفلج  
ويا أسفي ألا تترد تحية  
سوى أرج من طيب ومسك يأرج  
ألا إنما ناح الحمائم بعد ما  
ثويت، وكانت قبل ذلك تهزج  
ألا أيها المستبشرون بيومه  
أظلت عليكم غمة لا تفرج!  
أكلكم أمسى اطمأن مهاده  
بأن رسول الله في القبر مزعج!



فلا تشمتوا وليخسأ المرء منكم  
بوجه كأن اللون منه اليرندج<sup>(1)</sup>  
فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم<sup>(2)</sup>  
- غداه التقى الجمعان والخيل تمعج -  
لأعطى يد العاني، أو ارتد هارباً  
كما ارتد بالقاع الظليم<sup>(3)</sup> المهيج  
ولكنه ما زال يفشى بنحره  
شبا الحرب حتى قال ذو الجهل: أهوج  
وحاش له من تلكم، غير أنه  
أبى خطة الأمر الذي هو أسمع

---

(1)

(2)

(3)

وأين به عن ذلك؟ لا أين — إنه  
إليه بعرقه الزكيين محرج  
كأنني به كالليث يحمي عرينه  
وأشباله لا يزدنيه المهجج  
كدأب علي في المواطن قبله  
أبي حسن - والغصن من حيث يخرج  
كأنني أراه والرماح تتوشه  
شوارع كالأشطان تدلى وتخلج  
كأنني أراه إذ هوى عن جواده  
وعضرب الترب الجبين المشجج  
فحب به جسماً إلى الأرض إذ هوى  
وحب بها روحاً إلى الله تعرج



على حين لا عذرى لمعتذريكم  
ولا لكم من حجة الله مخرج  
فلا تلقحوا الآن اللواقح بينكم  
ويبينهم، أن اللواقح تتج  
غـررتـم لأن صدقتـم أن حالة  
تدوم لكم، والدهر لونا أخرج

## تجارب وعظات



## الظنون

يا أخي، أين ربح ذلك اللقاء؟  
أين ما كان بيننا من صفاء  
كشفت منك حاجتي هنوات  
غطيت برهة بحسن اللقاء  
ترككتني ولم أكن سيء الظن  
أسيء الظنون بالأصدقاء  
قلت - لما بدت لعيني شنعاً  
رب شوهاء في حشا حسناء  
ليتني ما هتكت عنكن سترأ  
فثويتن تحت ذلك الغطاء

قلن: لولا انكشافنا ما تجلت  
عنك ظلماء شبهة قسما  
قلت: أعجب بكن من كاسفات  
كاشفات غواشي الظلماء  
قد أفتتني - مع الخبر بالصا  
حب - أن رب كاسف مستضاء  
قلن: أعجب بهتد يتمنى  
لم ينزل على عمياء  
كنت في شبهة فزالت بنا عن  
ك فأوسعتنا من الإزراء  
وتمنيت أن تكون على الح  
يرة تحت العماية الطخياء  
قلت: تالله ليس مثلي من رد  
ضلالاً وحيرة باهتداء



غير أني وددت ستر صديقي  
بدلاً باستفادة الأنبياء  
قلن: هذا هوى فمرج على الحد  
ق واخل الهوى لقلب هواء  
ليس في الحق أن تود لخل  
أنه الدهر كامن الأدوية  
بل من الحق أن تنفر عنهن  
وإلا فأنت كالبعداء  
أن بحث الطبيب عن داء ذي الد  
اء ، لأس الشفاء قبل الشفاء  
دونك الكشف والعتاب فقوم  
بهما كل خلة عوجاء

وإذا ما بدالك العر<sup>(1)</sup> يوماً

فتتبع نقابه بالهناء<sup>(2)</sup>

قلت: في ذاك موتكن، وما المـ

وت بمستعذب لدى الأحياء

قلن: ما الموت بالكريه إذا كا

ن بحق لا تزد في المرء

---

(1)

(2)

## طينة الناس

وأعلم بأن الناس من طينة  
يصدق في الثلب لها الثالب

لولا علاج الناس أخلاقهم  
إذن لفاح الحمأ اللازب

## اعتزال الناس

ذقت الطعموم فما التذذت كراحة  
من صحبة الأشرار والأخيار

أأحب قوماً لم يحبوا ربهم  
ألا لفردوس لديه ونار

## المعدم في أمان

ما راح مغبوناً بصفقة خاسر

من باع متعة فائت بأمان

أمن امرؤ من رزء شيء فاته،

والمدركوه مراقبو الحدثان

وكفى عزاء لامرئ من فائت

ألا يخاف عليه صرف زمان

## القناعة

إذا ما كساك الله سريال صحة  
ولم تخل من قوت يحل ويعذب

فلا تفطن المترفين فإنهم  
على حسب ما يكسوهم الدهر يسلب

## من هو الكريم؟

ليس الكريم الذي يعطى عطيته

على الثناء وأن أغلى به الثمنا

بل الكريم الذي يعطى عطيته

لغير شيء سوى استحسانه الحسنًا

## جزاء الإحسان

ولقد كافأ بالنعمة امرؤ

كافأ النعمة بإخلاص الوداد

إن يكن نول نيلا من يد

فلقد نول نيلا من فؤاد



## الدرهم والسيف

لم أر شيئاً صادقاً نفعه

للمرء، كالدرهم والسيف

يقضي له الدرهم حاجاته

والسيف يحميه من الحيف

## الشريير

ولسي بشريير ضليع بحجة  
رمى باطلاً بالحق حين يخاصم  
ولا واسم عرض امرئ كان ناله  
بسوء - وإن لامته فيه اللوائم  
وما بي زهد في التفضل: أنه  
لفضل، ولكن للرجال شكائم  
ولكنما الشريير من عم شره  
وسولم بدءاً فأتلى لا يسالم  
وعاد بإذعان له وتودد  
أخوه فلم تنفعه تلك التمائم  
وكافاً إحساناً بسوء ولم يزل  
يراجم بالمكروه من لا يراجم

## الظلم

لانتقام المظلوم أرى على الظالم  
لم، من ظلمه على المظلوم  
صاحب الظلم أن تأملت كالرا  
تع في المرتع الوبيل الوخيم  
يجتلي أمره فيعلم أن قد  
باع ليل الكرى بليل السليم<sup>(1)</sup>  
فهو من لوم نفسه حين يخلو  
في عرام وفي عذاب أليم

---

(1)

قد أمرت حياته وشجته

برحاء السنديم والتسنديم

لو تجافى الخصيم عنه وأغضى

لكفاه بنفسه من خصيم

## الملام

لا تكثرن ملامة العشاق

فكفاهم بالوجد والأشواق

إن البلاء يطاق غير مضاعف

فإذا تضاعف كان غير مطاق

لا تطفئن جوى بلوم إنه

كالريح تغري النار بالإحراق

## السلو

أبت نفسي الهلاع لـرزء شـيء

كفى شـجوا لنـفسي رزء نفسي

أتهلـع وحـشة لفراق ألف

وقـد وطنـتها لـحلـول رمـس

## الصبر

أرى الصبر محموداً وفيه مذاهب،  
فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب!  
هناك يحق الصبر، والصبر واجب،  
وما كان منه كالضرورة أوجب  
هو المهرب المنجي لمن أهدقت به  
مكاره دهر ليس منهن مهرب  
لبوس جمال، جنة من شماتة،  
شفاء أسى، يثني به ويثوب

## إغراء المشيب

وتولى الشباب فازددت ركضا  
في ميادين باطلني إذ تولى

أن من ساءه الزمان بشيء  
لاحق امرئ بأن يتسلى



## الفناء

إذا اختط قوم خطة لمدينة  
تقاضتهم أضعافها للمقابر

وفي ذلك ما ينهائم أن يشيدوا  
وأن يقتنوا إلا كزاد المسافر

## الحرب الأهلية

وما قتل بعض الحي بعضاً بناهك  
قواه إذا ما جاء حي يحاربه

وما لطم بعض الموج في البحر بعضه  
يمانعه تفريق من هو راكبه

الشعر



## دفاعه عن شعره

لن قال لي عرضت على الأُخفش<sup>(1)</sup> ما قلته فما حمده

”قصرت بالشعر حين تعرضه

على مبين العمى إذا انتقده

ما قال شعراً، ولا رواه

فلا ثعلبه كان، لا ولا أسده

فإن يقل أنني رويت، فكالدفتري

جهلاً بكل ما أعتقده

أرمت زيني بأن تعرضني

لمدحه؟ فالذليل من عضده

---

(1)

أم رمت شيني بأن تعرضني  
لثلبه؟ فالسليم من قصده<sup>(1)</sup>  
أنشدته منطقاً ليـشـهـده  
فغاب عنه عمى وما شهده  
وقال قولاً بغير معرفة  
أفكا - فما حل أفكه عقده  
شعري شعر إذا تأمله الإنـ  
سان ذو الفهم والحجى عبده  
لكنه ليس منطقاً بعث الله  
به آية لمن جحد  
ولا أننا المفهم البهائم  
والطير سليمان قاهر المرده

---

(1)

ما بلغت بي الخطوب رتبة من  
تفهم عنه الكلام والقدره  
وحسب قرد أراه يحسدني  
أن يسكن الله قلبه حسده  
لا خفف الله عنه من حسدي  
وزاده الله فوقه كمده  
ولا تزل صورتني إذا طلعت  
لناظريه قذاه بل رمده

## حملته على البحتري

الحظ أعمى ولو لا ذاك لم نره  
للبحتري بلا عقل ولا أدب  
قبجاً لأشياء يأتي البحتري بها  
من شعره الفث بعد الكد والتعب  
كأنها حين يصغي السامعون لها  
ممن يميز بين النبع والغرب  
رقى العقارب، أو هذر البناة إذا  
أضحوا على شعف الجدران في صخب



وقد يجيء بخلط فالنجاس له  
ولالأوائل ما فيه من الذهب  
يسيء عفا. فإن أكدت وسائله  
أجاد لصاً شديداً البأس والكلب  
عبد يغير على الموتى فيسلبهم  
حر الكلام بجيش غير ذي لجب  
ما أن تزال تراه لا بساً حلاً  
أسلاب قوم مضوا في سالف الحقب  
شعر يغير عليه باسلاً بطلاً  
وينشد الناس إياه على رقب  
يقول مستمعوه الجاهلون به  
أحسن يا أشعر الحضار والغيب  
والحكم فيه مبين غير ملتبس  
لوريم فيه خلاف الحق لم يصب

إذا أجاد فأوجب قطع مقوله  
فقد دهى شعراء الناس بالحرب  
وإن أساء فأوجب قتله قوداً  
بمن يميت إذا أبقى على السلب

## التأسي

خليلي قد عللتما نسي بالأسى  
فأنعمت ما لو أنني أتعلل  
وما راحة المرزوء في رزء غيره  
أحمل عنه بعض ما يتحمل؟  
وضرب من الظلم الخفي مكانه  
تعزيبك بالمرزوء حين تأمل  
لأنك بأسوك الذي هو كلمه  
بلا جرم، لو أن جورك يعدل

## حلم اليقظة

المراء في حال التيقظ هاجع

يرنو إلى الدنيا بمقلة عالم

وأخو الحجا أبدأ يجاهد طبعه

فتراه - وهو محارب - كمسالمة

## التكاف

في الناس ذو حلم يسفه نفسه

كيما يهاب وجاهل يتعلم

وكلاهما تعب يحارب شيمة

غلبت فآض بحملها يتألم

## الدهر الشاعر

الناس كالشعر تلقى الأرض جأشثة

بالجمع يزجى، وخير منهم رجل

والدهر شاعر آفات يفوه بها

للناس يفكر تارات ويرتجل

## الحزم

إذا طرف من حبلك انحل عقده

تداعت وشيكاً بانتفاض مرائره<sup>(1)</sup>

فلا تغفلن أمراً وهي منه جانب

فيتبعه في الوهي لا شك سائره

---

(1)

## الأصدقاء

عدوك من صديقك مستفاد  
فلا تستكثرن من الصحاب  
فإن الداء أكثر ما تراه  
يحول من الطعام أو الشراب  
إذا انقلب الصديق غدا عدواً  
مبيناً والأمور إلى انقلاب  
ولو كان الكثير يطيب كانت  
مصاحبة الكثير من الصواب  
وما اللجج الملاح بمرويات  
وتلقى الري في النطف العذاب



## جمع المال

المال يكسب ربه ما لم يفض  
في الراغبين إليه - سوء ثناء

كالماء تأسن بئره إلا إذا  
خبط السقاء جمامه بدلاء

## حظه من الشعر

ويح القوا في ما لها سفسفت

حظي كأني كنت سفسفتها

ألم تكن هوجاً فسددتها؟

ألم تكن عوجاً فثقتها

كم كلمات حكمت أبرادها

وسطتها الحسن وطرفتها

ما أحسنت إن كنت حسنتها

ما ظرفت إن كنت ظرفتها

أنحت على حظي بمبراتها

شكراً، لأنني كنت أرففتها

فرقته حين رقتها ،  
وهففته حين هففتها  
وكنفت دون الفنى سدها  
حتى كأني كنت كنفتها  
أحلف بالله لقد أصبحت  
في الرزق آفتي وما أفتها  
لم أشكها قط بتقصيرة  
فيها ، ولا من حيفة حفتها  
حرمت في سني وفي ميعتي  
قراي من دنيا تضيفتها  
لهفي على الدنيا وهل لهفة  
تتصف منها إن تلهفتها  
كم أهة لي قد تأوهتها  
فيها ، ومن أف تأففتها



## الفهرس

5.....	:
8.....	
29.....	
39.....	
<b>57.....</b>	<b>:</b>
<b>63.....</b>	<b>:</b>
91.....	
<b>95.....</b>	
97.....	
101.....	
103.....	
105.....	
106.....	
107.....	
110.....	

112.....  
117.....  
122.....  
125.....  
126.....  
**127.....**  
129.....  
132.....  
135.....  
138.....  
147.....  
161.....  
166.....  
167.....  
168.....  
180.....  
183.....  
185.....  
186.....  
187.....

189.....  
**193**.....  
195.....  
199.....  
200.....  
201.....  
208.....  
209.....  
**211**.....  
213.....  
213.....  
**221**.....  
223.....  
227.....  
228.....  
229.....  
230.....  
231.....  
232.....  
233.....

234.....  
235.....  
237.....  
238.....  
239.....  
240.....  
241.....  
242.....  
**243.....**  
245.....  
248.....  
251.....  
252.....  
253.....  
254.....  
255.....  
256.....  
257.....  
258.....